الجدة .. الحكأة
وثقافة الطفل

تأليف

د. أماني الجندي

الكتاب: الجدة .. الحكأة وثقافة الطفل

الكاتب: د. أماني الجندي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الجندي، أماني

الجدة .. الحكأة وثقافة الطفل/ د. أماني الجندي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٠٥ ص، ١٨*٢١سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٠٨٠ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٢٢٦٨٢ / ٢٠٢٠

الجدة .. الحكأة وثقافة الطفل

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تمهيد

"أقرأ لطفلك" شعار جميل، لم أقف أمام المعنى السطحي له ، لكنني آثرت أن أتعمق هذين الكلمتين بما تنطويان عليه من أساليب التربية التي تبدأ بالأسرة وعلاقتها مع أطفالها.. فالأسرة ، الوالد والوالدة والجدة (أساساً) يتولون تربية الأبناء ويلعبون دوراً مهماً في عملية تكوين هذه الشخصية منذ الصغر التي تعتمد على تنمية الجسم وتنمية العقل وتنمية الوجدان.

وحينما نعود إلى هذا الشعار، فنحن أمام مسئولية أولى في تكوين العقل والوجدان معاً ، ففي سنوات الطفولة الأولى يقوم السماع مقام القراءة ، فإذا نظر الطفل إلى صور الكتاب مع سماع قصته.. تصور أنه يقرأ.. فهو يرى كائنات مصورة كأنها تتكلم وتبوح وتتحاور وتلعب، ومن ثم فإن الحكاية المسموعة هنا تعد من أكثر الأساليب تأثيراً في عقل الصغير ووجدانه.

أما من هذا الذى يحكي ؟ فقد يكون الأب أو الأم أو الجدة أو الأخت الكبرى أو الأخ الأكبر. المهم في هذا الأمر أن الشعار هنا يحث أي فرد من الأسرة على (القراءة) للصغير أي الحكي أو القص.

وإذا كان عنوان هذا الكتاب هو (الجدة الحكاءة) فقد قصد به

بالطبع الرمز لعودة دور أفراد الأسرة إلى العناية بثقافة الطفل في البيت، وليس حتماً المعنى الحرفي للعنوان.. وإن كانت الجدة ،عبر التاريخ القديم والحديث، هي الأقرب إلى أحفادها في الوصول إلى عقولهم .

إننى أعترف أننا نعيش اليوم عالماً مختلفاً تماماً عن أي عصر مضى.. عالماً تملؤه الأساليب الحديثة والتكنولوجيا والزحام الإعلامي الذي قد يبعدنا تماماً عن رعاية الصغار في البيوت، بل صار أمراً مألوفاً أن يعيش أطفال اليوم في دور الحضانة، وتفقد الأسرة هذا التواصل وهذه المسئولية في تثقيف أبنائها، لكن هذا الاعتراف لا يثنينا عن العودة إلى الثوابت والأصول والجذور.

لقد كانت أخبار الأبطال القدماء ومغامراتهم تقص على الناس شفاهاً.. فالإلياذه والأوديسه وسيرة عنترة وألف ليلة وليلة وغيرها.. كلها قصص تاريخي أو خيالي كانت تنشد للجمهور على آلات موسيقية ليسمع ويطرب، وكان هذا زمناً لا يعرف الكتب.

والطفولة مرحلة هي أولى من الكبار إلى سماع القصص المناسبة وقد استمتعت الأجيال السابقة علينا بحكايات الجدة العجوز التي تحمل الخيال والجن والسحر واللعب، بل إن الطفل قد يطلب من الجدة أن تعيد عليه ما حكته بالأمس، ليعيش مرة أخرى أحداث القصة وخيالها العذب .

ويؤكد العلماء أن مسئولية تثقيف الطفل . في سنواته الأولى تقع على الأسرة والطفل هنا يميل إلى الحكي.. ويظل طول يومه يحكى ويتحدث إلى امه وأبيه وجدته عن أحداث حدثت له..أو عن خيال أو لعبة أو علاقات

مع أصدقائه، ولا يكف عن ذلك الإ عند موعد النوم.

وأمام هذه الحقيقة فإن مسئولية الأسرة ،ثقافياً، تتمثل في إشباع نهم الطفل وتغذيته بالمادة التي يمكن أن تضيف إلى عقله ووجدانه مساحات أكبر من الحكي.

وأمام هذه الحقائق رأينا أن نطوف بعلاقة الأسرة بأطفالها في الحضارات القديمة والحضارة العربية، ونرصد هذه العلاقة في جانبها الثقافي خاصة الحكاية التى يستمع إليها الطفل ويستمتع بها.

وسيجد القارىء أننا لم نضن بأية معلومة تاريخية أو أدبية أو فنية تفيدنا في تأصيل هذه الظاهرة التى كادت تضيع وتتبدد في ساحة الزحام والتكنولوجيا، التي تبعد الأسرة عن دورها الحقيقي في بناء شخصية الطفل الثقافية. والله الموفق،،

د. أماني الجندي

كيف نخاطب أطفالنا ؟

يثير هذا السؤال قضايا مختلفة في ميدان الطفولة.. وينطوى على ضرورة معرفة سيكلوجية الطفل ومستواه العقلى .. والوجدانى حتى نستطيع أن نخاطبة باللغة والمضمون اللذين يؤثران فيه تأثيراً إيجابياً.

ويجمع العلماء على أن التربية تبدأ والإنسان جنين في بطن أمه.. وهي تمتد معه طوال حياته لأن حياته ما هى الإ تفاعل مع البشر والوجود..

والطفل في سنواته الأولى صفحة بيضاء ينتظر من الكبار أن يسطروا فيها ما يرونه صالحاً لتكوينه جسدياً وعقليا ووجدانيا..

وربما يهمنا الآن هذا النمو العقلي لمرحلة الطفولة المبكرة والتي تعتمد أساساًعلى الحكى واللعب معاً .. كما تأخذ في الاعتبار النمو النفسى والانفعالى وحاجات الطفل النفسية والانفعالية التى يمكن أن يشبعها الكبار في محيط الأسرة..

إن هذه المرحلة المبكرة لها خصائصها النفسية وحالاتها الوجدانية.. وعلى الكبار أن يلاحظوا هذه الخصائص وهم يخاطبون أبناءهم..

فالطفل في هذه المرحلة في حاجة إلى الحب والتعاطف والحنان والشعور بالأمن وحرية الحركة.. وضبط السلوك ونمو العقل والوجدان واللعب الذى ينمي جسمه وعقله معاً..

وهذه المرحلة أيضاً تعتمد على الاستماع والنظر واللمس أكثر مما

تعتمد على النطق.. وإن كان تعبير الطفل بفمه والاشارة بيده يمكن أن يصل إلى الكبار وببساطة..

ولقد أكد إعلان حقوق الطفل ـ منذ عام ١٩٥٩ وتعديلاته ـ على حقه في الشعور بالأمن الاجتماعى.. وفي منحه الوسائل التى تتيح له أن ينمو جسميا وعقليا وروحيا واجتماعيا نموا صحيحا وسويا.. وأن يتلقى تعليما يرقى يثقافته العامة وتتاح له الفرصة الكاملة للعب والتسلية.. وان يتلقى الحماية من كل أشكال الإهمال والقسوة والأستغلال.

تلك أهم الحقوق الخاصة بالطفل والتى ينبغى أن يعيها الكبار وهم يخاطبون أبناءهم..

وحينما ندخل مجال الحكى .. فنحن أمام طفل في سنواته الأولى يتشوق إلى المعرفة.. ويحتاج إلى من يرشده ويأخذ بيده في طريق الثقافة..

ولقد تعددت الآراء حول: ماذا نحكى لأطفالنا في أعمارهم المختلفة؟ ومن المؤكد أن الأطفال في السنوات الأولى في حاجة إلى القصص البسيطة القصيرة والمرسومة الملونة والمجسمة وذات الصوت باعتبار أن ذلك كله يمثل جانبا من اللعب الذى يثقف الصغير فيصل تأثيره إلى وجدان الطفل بشكل أفضل..

إن الطفل في هذه المرحلة مملوء بالأسئلة.. ويحاول محاكات الكبار في كل شيء بقدر ما يستطيع. ثم ها هو من سن الثانية إلى الرابعة يتعلم الخبرات المباشرة. ويكرر هذه الخبرات في صورة ألعاب.. كما يبدأ في تنمية احساسة بالاستقلال ومن الرابعة حتى السادسة يتقمص أدواراً مختلفة في

أثناء اللعب.

ومن ثم فان دور الوالدين يتركز في هذه المعرفة برغبات وحاجات الطفل.. وكيف يصوغان أسلوب تعاملهما مع الأبناء وحاجات الطفل.

على نحو يمكنهما من معايشة كل مرحلة عمرية بكل ما تقتضى من الاحتياجات النفسية والتثقيفية.. ولا شك ان دور الأسرة يتكامل حينما يضاف إليه امكان تنشئة الطفل اجتماعياً.. وكذا كيفية تنمية قدراته الإبداعية.

على الوالدين ــ إذن ـ أن يتحليا بالمرونة والمحبة.. وأن يتعاملا مع الصغير على أنه كائن صغير السن يتطلب الاحترام لرغباتة والثقة في إمكاناتة.

أما عملية الحكى فتتطلب عناصر مهمة.. اذ إن هناك فرقاً بين قراءة القصة بلغتيها المكتوبة وسردها أو حكايتها . وسوف نبين ذلك فيما بعد[1]

ويكفي ان نؤكد على أن الكبار ينبغى أن يهيئوا المناخ المناسب للحكى.. وهو مناخ شعورى يتحقق باشعار الصغير بالصداقة والأمان..

وعليهم أن يحرصوا على تيسير لغة الحكى ومناسبتها للمستوى العقلى للطفل .. وهنا يجدر بنا أن نؤكد أن اللغة العربية ثرية بمفرداها التى تبدأ بالبساطة وتنتهى بالتعقيد.. وعلى الحاكى أن يدقق في اختيار الفاظة وهو يخاطب الطفل..

---

(1) ١. أنظر مجلة أدب الأطفال بحث (إحياء قدرة الوالدين على الحكى) أحمد سويلم: دار الكتب والوثائق القومية . أغسطس ٢٠١٢ ص٨٩

فمثلاً:

جملة: مات الرجل الشرير

أفضل من: توفي أو قضى نحبه.. أو لاقى منيته

وكلمة: غالى أفضل من كلمة (ثمين)

وجملة: كان قائداً محبوباً

أفضل من جملة: احتل هذا القائد قلوب الجنود

وكلمة: عاد أفضل من كلمة: آب

وكلمة: قلب أفضل من كلمة: فؤاد

تلك نماذج قليلة .. لكن اللغة مملوءة بالمفردات الموحية والبسيطة والقريبة من وجدان الطفل..

ولأننا في مجال حكى النصوص الأدبية.. فلابد ان نتعرض لفكرة الرمز يعنى (العلامة) أو (الإشارة) التى تدل على شيء موجود أو معنى مقصود تستوعبه تصله المخيلة ويدركه العقل..

والطفل في المرحلتين الأولى والثانية يتعرف بشكل أو بآخر على عناصر العالم المختلفة.. وهو حينما يسعى إلى التقليد أو المحاكاة واقتباس المفردات وبناء اللغة.. إنما يتعرف على نماذج متفاوتة القيمة والأهمية بالنسبة لمداركه..

والرموز في هذا المجال نوعان (١)

١. رموز مباشرة: تتعلق بمصادر المعرفة الأولى في المحيط الإجتماعى مثل العائلة ـ الأسرة ـ وتنافس الطفل في اكتساب حب أبويه أو كليهما.. فالأب رمز القوة والأم رمز الحنان ومركز الأسرة.(١)

ثم تأتى البيئة لتعطى الطفل رموزاً لا حصر لها ودلالات شتى تعرفه بالعالم من حوله.. فالأسد رمز الشراسة والقوة ـ والقطة رمز الألفة.. والثور رمز النشاط.. والليل رمز النوم والنهار رمز النشاط والعمل وهكذا.

٢. رموز غير مباشرة: وتتعلق بقوانين الطبيعة وظواهرها..

وبالمعتقدات الدينية لكن ذلك كله يفوق عقلية الصغير لكنها تترجم ـ في الحكى ـ بقيم إيجابية وسلبية مثل الصدق والكذب ـ والثواب والعقاب.. الخير والشر وغير ذلك.

إن ما يهمنا في المرحلة الولى التعريف بالحياة والبيئة المحيطة بالطفل.. البيت ـ الروضة ـ الأصدقاء .. الطعام.. عالم الحيوان .. الأشجار.. الضوء ـ الظلام.. السلوك السوى اللعب والتسلية.. وغيرها مما يتعلق بعالم الطفل..

ومن ثم فان الحاكى لابد أن يكون على وعى برغبات الطفل في المعرفة والتعرف على العالم من حوله.. ومن هنا تأتى أهمية تقدير الكبار ومخاطبة الصغار بما يتناسب مع عقولهم ورغباتهم.

---

(١) الكتابة على صفحة بيضاء ـ فاروق سلوم ـ دار ثقافة الطفل بغداد ١٩٨٦ ص٣٧

الحكي وتربية الطفل

هل لاحظت طفلا صغيرا يجلس الى لعبة ويتحاور معها ؟

هل رأيت مولودا في مهده يصدر مناغاة من فمه ويحرك يديه وقدميه وكأنه يحكى ويتكلم ؟

إنه الحكي الذى يعبر الطفل به عن نفسه في صور مختلفة بالصمت حينا وبالصوت حينا آخر..

ومن ثم كان شغفه بالاستماع إلى الغير يحكى له.. يأخذ منه ثم يحاول أن يعيده على نفسه مرة آخرى..

لقد أدرك علماء النفس أن الأطفال في أعمارهم المبكرة في شغف كبير إلى السماع لأنهم يكونون في مرحلة النطق الصعب.. وأيضاً لا يعرفون القراءة.

لهذا كان الاستماع إلى القصة عاملاً مهما في تربية الطفل الثقافية ولعل الأجيال تذكر تلك الليالى والأوقات السعيدة التى كانوا يمضونها للاستماع إلى الأمهات والجدات ـــ خاصة قبل النوم ــ وكيف كانت هذه الحكايات تساعد الأطفال على النوم بأحلام سعيدة ــ ونلاحظ أنه بقدر ما يستطيع الحاكى أن يؤثر في الطفل بقصته المحكية. .

بقدر ما يحاول الطفل أن يعيد ما استمع إليه في متعة وسعادة..

بل قد يلجأ الطفل إلى تمثيل القصة بحركاته وتلوين صوته..

ولن يكون الحكى مجديا الإ إذا أحسن اختيار القصة التى يحكيها..

فالقصة نوع من الأدب له جماله ومتعته.. ويشغف به الكبار والصغار والاختيار المناسب للقصة يؤثر تأثيراً ايجابيا في وجدان الصغير..

وقد اتفق الباحثون على أن القصة المحكية المناسبة تقوم على دعائم ثلاث:

١ـ الفكرة التى تتضمنها القصة والناحية النفسية فيها ومناسبتها للمتلقى كما يدخل ضمن الفكرة طول القصة وقصرها

٢- ترتيب عناصر الفكرة وانسجامها .

٣- اللغة والاسلوب الذى تصاغ به الفكرة .(١)

اما الفكرة فتتعلق بقدرة الحاكى على انشاء القصة .. وتقترب هذه القدرة من دائرة الموهبه .. تماما مثل الموهبه الموسيقية أو الشعرية .

وقد عنى علماء التربية بدراسة انواع القصص من حيث الفكر لمعرفة أيها أكبر ملائمة لعقلية الصغير .. وذكروا أن أنسب القصص هو ما احتوى شخصيات مألوفة من الحيوانات والنباتات أو شخصيات بشرية مألوفة كالأم والأب والأطفال الصغار .. على أن تكون لهذه الشخصيات صفات جسمية سهلة الإدراك كالدجاجة الحمراء .. والبنت ذات الشعر

---

(١)أنظر القصة في التربية ـ د. عبد العزيز عبد المجيد ـ دار المعارف ١٩٥٦ ص١٣

الأصفر .. والشيخ ذى اللحية البيضاء .. ويحسن أن تكون تلك الشخصيات متكلمة أو ذات اصوات وحركات .. حتى لو كانت جمادا .

كما ينبغى ان تكون القصة قصيرة حتى يستطيع الطفل ان يلم بأحداثها البسيطة .. فقد تتعلق احداث القصة بعالم الطفل نفسه .. ويبدأ خياله في العمل فيتخيل الوسادة حصانا يمتطى .. أو سفينة يركبها .. والكراسى أطفالا مثله يحادثهم ويحاورهم .

ومن العيوب الشائعة في القصة أن تكون الفكرة مخيفة ومرعبة ومن ثم يجب تجنب هذه القصص حتى لا تؤثر سلبيا في وجدان الطفل وتنشئته أحيانا خائفا .

وتصاغ القصة عادة في مقدمة وعقدة وحل .. بما يتناسب مع عقلية الصغير ..

أما أسلوب السرد أو الحكى فيجب أن يكون بسيطا في ألفاظه بعيدا عن التعقيد .. وأصوات الحيوانات والطيور في القصة تضيف كثيرا إلى حيويتها وتأثيرها في نفس الملتقى ..

ومن الثابت في علم النفس أن كل كلمة أو عبارة يسمعها الطفل ـ خاصة ـ تثير في نفسه صوراً ومعانى تظل حية في وجدانه طوال حياته ويؤكد يعقوب الشاروني ـ من خلال خبرته ـ أن القصة المروية لها تأثير قوى في وجدان الطفل (١)

فرواية القصص هى أسرع الطرق لتكوين المودة بين (المربى) والأطفال بالإضافة إلى أن إثارة الشغف بالقصص يعد مدخلاً رئيسياً لحب الكتب ـ

فيما بعد[1].

ويؤكد الكاتب أن مزايا تلاوة القصة من كتاب تمكن الطفل من متابعتها مرة آخرى بالتطلع إلى الصور..

ولكن رواية القصة بغير تقيد بنص مكتوب وبغير الاستعانة بكتاب ستظل من أنجح الوسائل في تنمية كثير من المهارات اللازمة لحب القراءة والإقبال على الكتب.

لقد كانت رواية القصة واحدة من أقدم مظاهر التسلية ويبدو أنها ستظل كذلك.. فنحن نمارس جميعاً يوماً بعد يوم سرد القصص.. وعندما نقابل أصدقاءنا او أفراد العائلة ننساب في سرد الأحداث التى وقعت لنا..

حتى الأطفال أنفسهم لديهم هذه العادة.. حيث نلاحظ شغفهم بالحكى عما حدث لهم حينما يدخل عليهم الأب أو الأم.. وحتى ينجح الحاكى في سرد قصصه عليه أن يكون على دراية جيدة بالقصة التى يحكيها ومناسبتها العقلية الصغير.. وعليه أن يستخدم كل إمكاناتة الصوتيةوالحركية في توصيل القصة.

كذلك على الحاكي أن يختار القصة المناسبة لسن الطفل.. فليست القصص ـ كلها ـ مناسبة لكل الأعمار..

إن قدرة الطفل على الإصغاء إلى القصص تبدأ عندما يستطيع فهم ما يحيط به من حوادث.. وذلك عندما يصل إلى نهاية السنة الثالثة منعمره..

([1]) تنمية عادة القراءة عند الأطفال ـ يعقوب الشاروني ـ أقرأ ـ دار المعارف ١٩٨٣

وأحياناً خلال تلك السنة .. فإنه في الفترة ما بين ثلاث إلى خمس سسنوات يفضل القصص التى تدور حول الحيوانات أو حول شخصيات في محيطه.. وبعد هذه المرحلة وإلى سن الثامنة أو التاسعة يفضل الطفل القصص الخيالية التى تدور حول الجن والسحر والعمالقة والملائكة..

ونلاحظ أن الطفل كلما صغر في سنه لا يمل من تكرار سماعنفس القصص التى تستهويه.. بل يستوعب أحداثها بسهولة ولهذا فان حسن اختيار القصة يعد عاملاً مهماً في التأثير إيجابيا في وجدان الطفل.. وفي تربيتة الثقافية.

ومن المؤكد أن الأسرة تكتمل بوجود الأطفال.. ومن ثم فأهمية تربية الأطفال ورعايتهم من العوامل التى تلعب دوراً مهماً في تنشئة الصغير باعتباره عضواً في الأسرة..

ومن هنا جاءت أهمية دور الوالدين في سنوات الطفل الأولى لأن الطفل يكون في دور تعلم القراءة واكتساب المعرفة وفي حاجة إلى من يرشده ويأخذ بيده في طريق التثقيف.. ولهذا فان الإستماع إلى القصص والتحاور مع الكبار واللعب الذى ينطوى على المعرفة كلها تمثل مسئولية مهمة في نطاق الأسرة.(١)

وفي هذا السياق يمكن أن نبدأ مع الطفل في سنواته الأولى بتلك القصص البسيطة القصيرة التى لا تحتاج إلى تركيز شديد..

ودور الوالدين في هذه المرحلة أكثر أهمية.. وعليهما أن يستمعا إلى الطفل حينما يكون راغباً في التحدث إليهما مهما كان الحديث تافهاً

وساذجاً..

والطفل في هذه السن يرى كلكل شيء بمنظوره الخاص.. فالشجرة تتحرك وتمشى في الشارع.. والحمار يتكلم.. والقطة تلعب.. والكلب يحرس البيت..

وهذه طفلة طلبت من جدتها أن تنظر معها من شرفة البيت.. ثم بدأت تحكى للجدة كيف أن الشجرة الكبيرة أمام البيت كانت غاضبة على الأولاد لأنهم يضربونها بالكرة.. ويجرحونها في جسدها حتى سال منه الدم..

ومرة ثانية جاءت الطفلة تشكو لجدتها زميلها في المدرسة لأنه يضربها وتمنت أن يموت زميلها ويأكله الذئب بدلاً من أن يأكل ذات الرداء الأحمر..

ومرة ثالثة حكت لها كيف ضرب ابن جارتهم القطة ضرباً موجعاً وأخذت تبكى وتصيح به: حرام عليك.. سوف تذهب إلى النار.

مثل هذه المواقف الحكايات التى يحكيها الأطفال تفتح أبواب الحكى لدى الكبار لإشباع رغبة الصغار وإنشاء عدد من المواقف المشابهة في أسلوب بسيط وخيالى.. مفعم بالقيم.. ويساعد على تنمية الخيال والفكر معاً.[(١)]

---

(١) انظر مجلة (أدب الطفل) دار الكتب والوثائق القومية أغسطس ٢٠١٢ بحث (إحياء قدرة الوالدين على الحكى) أحمد سويلم ص٨٩

ومن ثم فدور الأسرة في الحكى لأطفالها عامل مهم في التربية ويمكن تلخيص هذا الدور في

الخصائص الأتية:

١. إعطاء الكبار لأبنائهم قدراً كبيراً من وقتهم وجهدهم لرعاية مواهب الصغير منذ الطفولة المبكرة.

٢. التعامل مع الصغير باحترام ومحبة وتقدير لكل رغباته.

٣. محاولة تعديل سلوكه عن طريق الحكى وغرس مزيد من القيم في وجدانه

٤. اتباع أسلوب التربية التى يأخذ صورة التوجيه وليس الضغط أو السيطرة.

٥. إعطاء الطفل قدراً من الاستقلال والتعبير عن ذاته بممارسة الحكى والهوايات واللعب.

٦. الاهتمام بأى سؤال من الطفل مهما كان تافهاً أو ساذجاً

ونحسب أن الكبار يمكنهم تحقيق ذلك عن طريق:

١. الحكى من خلال الأحداث اليومية.

٢. الحكى من خلال القصص البسيطة الملائمة.

٣. الحكى من خلال اللعب باعتبار اللعب يحقق المتعة والتعلم.

٤. ينظر الطفل إلى الكبار على أنهم يعرفون كل شيء لهذا يجب أن يدرك الكبار أهمية صحة المعلومة التى يلقونها على أبنائهم.

٥. محاولة الارتقاء بالذوق الجمالى عند الطفل من خلال تعميق الإحساس بالصور والطبيعة.

وأخيراً فان مسئولية الكبار في عصر ممعن في غرس القطيعة لهذه الصلة الحميمة مع الصغار مسئولية مهمة وخطيرة.. ينبغى العودة إليها حتى ننمى طفلاً صالحاً لنفسه ولوطنه..

الأسرة والطفل بين الأمس واليوم[1]

تعد الأسرة الخلية الأولى التي يتكون منها المجتمع الإنساني.. ونستطيع ببساطة أن نحكم على عظمة أي حضارة بدرجة تماسك الأسرة التي تنتمي إلى هذه الحضارة.. وموقف هذه الحضارة من الطفولة والأمومة معا.

وسوف تكون جولتنا في هذا الفصل مع العلاقات الداخلية بين الكبار والصغار في نطاق الأسرة – في الحضارات القديمة والحضارة العربية والإسلامية .. وصولا إلى ما انتهت إليه الأسرة في العصر الحديث..

ولأن الموضوع يطول لو وقفنا عند تفاصيل كثيرة.. فسوف نقصد إلى علاقة الأسرة بأبنائها قصدا.. باعتبار أن هذه العلاقة هي محور ما نصبوا إليه خلال هذه الدراسة..

لقد أجمل الحكيم المصري القديم (بتاح حتب) دستوره في التربية حين قال: (إذا نضجت وكونت دارا.. وأنجبت ولدا من نعمة الإله.. واستقام لك هذا الولد .. ووعى تعاليمك.. فالتمس له الخير كله.. وتحرّ كل شئ

(١) – اعتمدنا في هذا الفصل على بعض المراجع المهمة منها:
- التربية والتعليم في مصر القديمة د. عبد العزيز صالح– الدار القومية١٩٩٦
- الأمومة والطفولة في مصر القديمة د. مُحَمَّد فياض – د. سمير أديب – دار البستانى ٢٠٠١
- الأدب المصري القديم (موسوعة سليم حسن ص١٨/١٧– مكتبة الأسرة ٢٠٠٠
- أطفالنا في عيون الشعراء أحمد سويلم – اقرأ– دار المعارف– ١٩٨٤
- التربية الإسلامية في الحديث الشريف– د. عبد الجواد سكر– دار الفكر العربي ١٩٨٣

من أجله.. فإنه ولدك.. وفلذة كبدك.. ولا تصرف عنه نفسك).

وجاء في تعاليم مصرية متأخرة ما يؤكد مسئولية الآباء في تربية أبنائهم على هذا النحو، إنه تمثال من حجر ذلك الابن الذي لم يعلمه أبوه).

ولقد شاركت الأم زوجها في تربية أطفالها مشاركة فعلية.. ولعلها بدورها قد نالت مكانتها الأسرية والاجتماعية بهذا الدور.. وقد صور المصريون القدماء السماء على شكل امرأة ورمزوا لها بالإلهة (تحوت) ليؤكدوا فضل الأم وحنانها وتضحيتها في تربية أولادها.

أدرك المصري القديم – إذن– أهمية أن يعني بتربية أولاده.. وكثرت في ذلك الأمثال والرسائل التي تحض الكبار على تثقيف أبنائهم وتعليمهم وتهذيبهم في مناحي الحياة المختلفة.

وقد سلكت التربية المصرية القديمة مسلكا وسطا يستهدف غايات مخلصة في التعليم والتثقيف حيث تضمنت قواعد السلوك والأخلاق وسبل العبادة الحقة والحياة السليمة عن طريق الحكي وترديد الشعر.. والرقص والغناء.

ويحدثنا المؤرخ (تيودور الصقلي) في كتابه عن تاريخ مصر عن تربية الأبناء داخل الأسرة المصرية القديمة بقوله:

(إن الآباء ملمون بتربية أولادهم جميعا.. أي من غير وأد لبعضهم بتركهم في العراء.. كما كان الحال عند اليونان.. لزيادة عدد السكان.. فقد رأوا أن ذلك يزيد عمارة البلاد والمدن وهم لا يعتبرون أي ولد ابنا غير شرعي ولو كان ابن أمة مشتراة.. ويربي المصريون أبناءهم بيسر واقتصاد

فوق الإدراك).

وقد كانت الرابطة التي تربط بين الأبوين وأبنائهما قوية متماسكة فالأم ترعى الطفل في سنواته الأولى وتقوم بإرضاعه اللهم إلا إذا كانت الأسرة غنية وثرية فإنها كانت تستأجر من يرضعه..

وقد حرصت الأسرة المصرية على تسمية أبنائها بأسماء جميلة تحمل معاني الخير والسعادة مثل (سنب) أي سليم – و(مري) أي محب– و(نختي) أي قوي– و(عنخ تبقي) أي سوف يعيش طويلا– و(بنسن) أي سيدهم.

وقد ينسب إلى بلدته أو يسمى باسم حيوان أو نبات أو معبود ديني.

أما البنات فكن يشتركن أحيانا مع الصبيان في أسمائهن.. وقد اتسمت أغلب الأسماء بطابع العذوبة والإعزاز والرغبة في التدليل ومنها على سبيل المثال :(نفرة) أي جميلة– (بنرة) أي طعمة – (سشن) أي زهرة السوسن أو اللوتس – (جحسة) أي غزالة– (نفرتاري) أي حلوتهم– (نفرتيتي) أي الجميلة قادمة.. وغيرها..

وهنا ينبغي أن نذكر أن الأم كانت يقوم على عاقتها تربية الطفل في سنواته الأولى.. فهي تحكي له.. وتلعب معه.. وتتحاور معه.. وتهدهده.. وأحيانا ما تدخل الفزع إلى قلب طفلها بكلمة (البعبع) التي هي كلمة قبطية أصلها (بوبو) وهي اسم عفريت وصورته مخيفة.. وقد اتخذه المصريون القدماء ليخيفوا به الأطفال ويرمز به إلى الشر..

كما أن كلمة (بخ) التي مازالت تقال حتى اليوم أصلها قديم وتعني

القبح أو القذارة.

وكلمة (مم) أصلها هيروغليفي (أونم) والقبطي (موم) ومعناها الطعام.

وكلمة (إمبو) أي اشرب.

وكلمة (ننه) أنت طفل حسن.

وكلمة (تاتا) تحث الطفل على المشي.. وهكذا.

ولقد كثرت (التعاليم) التي جاءت على ألسنة الحكماء الموجهة إلى الصغار.. وقد وضع فيها دستور للقيم والعادات والتقاليد والثقافة وكان بعضها يدرس في المدارس.. ومن ذلك ما كتبه الحكيم (خيتي بن داووف):

(يا ولدي عليك أن توجه قلبك إلى الكتب .. فلا شئ يعلو على الكتب.. ليتني أستطيع أن أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك..)

أما الحكيم (آني) فيقول:

(ادرس الأدب وضعه في قلبك.. يطيب كل ما تقول).

وبالتالي فإن معرفة الأدب تؤدي بالضرورة إلى الاستمتاع بالحكاية التي تنمي الخيال عند الطفل وتغذي مشاعره وتنشئه على الحب والتعاطف مع الغير..

وقد تركت لنا الحضارة المصرية القديمة عددا كبيرا من الحكايات التي تمتزج بها الأسطورة بالواقع.. والخيال بالحياة..

وقد جمعها د. سليم حسن في موسوعته في الجزئين السابع عشر

والثامن عشر.. وأضاف إليها الأمثال والتأملات والرسائل الأدبية والشعر..

ولا شك أن مثل هذه الحكايات ونماذج الأدب الأخرى قد أنشأت جيلا قويا مثقفا صنع الحضارة المصرية القديمة وجعلها تبقى على الزمن دون انطفاء..

ومن أهم هذه الحكايات وأشهرها: قصة سنوحي- خوفو والسحرة- الأمير المسحور- الفلاح الفصيح- اللص الماهر- الملاح الغريق- الأمير الموعود.. وغيرها.

ونستطيع أن نؤكد أن مثل هذه الحكايات قد حملت الفكر والخيال والمتعة والتشويق.. ويمكن أن تعيش على مدى الزمن وتحكي مرة أخرى في عصرنا الراهن[1]

ونسوق هنا ملخصا لقصة الملاح الغريق والتي تأثر بها راوي ألف ليلة وليلة في قصص السندباد البحري..

تقول القصة :(في يوم أرسل الملك أميراً إلى أرض الصومال ليحضر بعض النفائس.. فلم يوفق وعاد خائبا.. ولاقى في طريقه أهوالا عظيمة وصل بعدها إلى أرض الوطن سالما.. ولكنه كان حزينا لأنه لم يحقق هدف رحلته.. فتوقع معاقبة الملك له.. وكان لهذا الأمير تابع مخلص أحزنه ما رآه على وجه سيده من الحزن والألم.. فأراد أن يهدئ خاطره ويخفف من آلامه.. فذكر له أنه كان مسافرا على ظهر سفينة إلى بلاد بعيدة غنية

---

[1] - انظر: حكايات الفرعون الصغير، إعداد :أحمد سويلم- دار الشروق ٢٠٠٦.

بمعادنها.. وحدث أن ثار البحر فحطم السفينة.. فغرق ركابها ولم ينج إلا ذلك التابع البحار حيث حمله الموج غلى جزيرة رملية.. فلما آفاق رأي ثعبانا هائلا.. فأحس بالخوف والحزن وتوقع نهايته على أيدي هذا الثعبان .. لكن الثعبان لم يكن كذلك.. فقد أحسن استقبال الرجل وأخذ يطيب خاطره وأخبره أنه حارس هذه الجزيرة وأنه جاء إلى هذه الجزيرة بمغامرة مشابهة لمغامرته.. ثم تنبأ الثعبان للرجل بوصول سفينة مصرية ستحمله إلى وطنه .. وبالفعل حدث ذلك ووصلت السفينة.. وحينما انتهى التابع من قصته قال له الأمير: إن حكايتك خففت عني فعلا لكن الموت لا محالة ينتظرني..).

لقد كان هذا ملخصا لقصة الملاح الغريق التي كانت أساسا لكل قصص البحر في الأدب الشعبي والعالمي.. وكما نلاحظ يمكن أن تضاف إليها أحداث أخرى تحمل الخيال والسحر والمغامرة وغيرها من الأحداث التي تشد انتباه السامع وتجذبه إلى المتابعة والاستمتاع بها..

كما وجدت قصص أخرى عن انتصارات القادة في المعارك خاصة عصر قبل الميلاد ومن بين هذه الحكايات التي وجدت على أوراق البردي (حكاية السبع والفأر).

وكما كان الحال في مصر القديمة كان الأمر يتشابه في الحضارات الأخرى مثل حضارة وادى الرافدين (بالعراق) حيث كانت لها أساطير وملاحم تمجد آلهة السومريين ومآثرهم.. كما كان لديهم أيضا تراتيلهم الدينية وحكايات الحيوانات والشعر والرسائل وغيرها.

أما الحضارة اليونانية فقد تميزت بالأعمال المحكية الكبيرة، مثل مآسي سوفوكليس وروايات أريستوفانيس وأساطير إيسوب المعروفة على ألسنة الحيوانات.. وقد كان أيسوب هذا حكيما حينما كتب آراءه على ألسنة الحيوان.. معبرا عن اضطهاد السلطة.. لكنها – مثل كليلة ودمنة– تصل إلى الطفل ببساطة دون تفسير أو فلسفة عميقة.

أما الحضارة الفارسية فقد خلفت تراثا متميزا في الأدب المحكي والشعر.. ومن أهم ما وصل إلينا ملحمة الشاهنامة للفردوسي وترجمة كليلة ودمنة التي وصلت إلينا عن طريق ابن المقفع.

أما الحضارة العربية فقد كانت تنظر إلى الطفل على أنه رجل صغير السن وعرف في الشعر العربي ما يسمى (شعر ترقيص الأطفال) أو (أغاني الطفولة) مما يؤكد العناية بتربية الصغار عن طريق الأدب والشعر.. وأغاني اللعب.

أما المدرسة الإسلامية في التربية فتركز على البيت أولا عن طريق المحاكاة والحكي والتلقين ثم الكتاب وهو أشبه بالمدرسة الأولية أو الابتدائية.

والطفل في البيت محور يهتم به الكبار.. يهذبونه ويوروحون عنه ويحكون ويلعبون معه.. ويغرسون فيه القيم الثقافية والجمالية والنفور من كل قبح.. والتمتع بكل جمال.. ويمكن أن نجمل هذه الأدوار فيما يلي:

١– تربية الطفل على التعلق بالخير والنفور من الشر.

٢– تربية الأحاسيس وتنمية الخيال والشعور الإنساني

٣- الاستمتاع بالحياة وبالاستماع إلى الحكاية والشعر

وكان المسلمون في بداية عصر الإسلام يعتمدون على السماع فلم يكن يعرف منهم القراءة والكتابة سوى عدد قليل.

ولنا أن ندرك أن القصص القرآني كان يمثل عاملا مهما في تربية المسلم..

ومن الأغراض الأساسية لاستخدام القصة في التربية توصيل المعلومات والحقائق بأسلوب جذاب.. وتربية الطفل تربية خلفية صحيحة حيث يتعرف على القدوة والمثل فيحاكي ويتمنى ويحلم بأنه بطل أو فارس أو قائد كبير..

ومن ذلك مثلا ما حكاه رسول الله "ﷺ" عن امرأتين معهما أبناؤهما.. وجاء الذئب فأكل أحدهما .. فقالت إحداهما للأخرى إنما ذهب الذئب بولدك.. وقالت الأخرى: إنما ذهب بولدك أنت.. فاحتكما إلى سليمان عليه السلام فقال: آتوني بالسكين أشق الولد الحي بينهما.. وهنا قالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى بالولد للصغرى..

أما قصص الأمثال فهي كثيرة.. وهي تؤثر في وجدان المتلقي وتلعب دورا في تعديل سلوكه وترغيبه في الحياة الكريمة.. والتربية الإسلامية تهتم بملاعبة الأطفال والحكي لهم عن طريق اللعب..

بقي أن نسأل ونحن نعبر الزمن إلى عصرنا الحديث.. ماذا تبقى من كل ذلك لطفل اليوم..

– هل مازال الكبار يحكون لأبناءهم؟

– هل مازال الكبار يرعون أبناءهم ثقافيا؟

– هل مازالت الأسرة تؤمن بدورها في تربية الطفل؟

ـ هل ما زالت الجدة حكاءة لأحفادها؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة تضع الأسرة الحديثة أمام المسئولية الحقيقية لتنشئة جيل قوي مثقف منتمٍ لوطنه وهويته..

ولقد قصدنا من عرضنا السابق أن نفتح الأبواب الموصدة.. ونكشف الغموض عن بعض مناطق التاريخ لنعرف كيف كان أطفالنا في أيدي أسر أمينة.. فنشئوا أكثر ثقافة ووعيا وأقاموا حضارات وأمما خالدة على مدى التاريخ.

وسوف نبدأ بدراسة مضامين الحكي في مظاهره المختلفة محاولين رسم دروب واضحة للكبار وهم يتعاملون مع أبنائهم ويقصدون إلى تربيتهم ثقافيا ووجدانيا.

الحدوتة

[توتة..توتة..فرغت الحدوتة..حلوة واللاملتوتة]

حينما كنا نصل ـ ونحن صغار – إلى الاستماع لهذه الكلمات – يعيبنا الحزن.. وندرك أن وقت الحكى قد انتهى.. فنحن لا نمل الاستماع إلى الحواديت.. وكثيرا ما نتعلق برقبة الجدة حتى تحكى لها مزيدا من الحواديت..

وهناك في دائرة الحكى عدة مصطلحات ينبغى أن تذكرها وان كانت جميعها تمثل في النهاية (حدوتة)

١ـ الحكاية .. من المحاكاة والتقليد.. أى أنها تحاكى الواقع المعيش أو الواقع النفسى.. فيقال هذا الحدث حكاه فلان أو حكاه بخطه.

الحدوتة ونشأتها:

الحدوتة في أصلها اللغوىتعنى الحدث والاخبار عنه في وقت واحد، وقد ارتبطت بلغة الحياه اليومية وأنها استوعبت النموذج والمثال والتسلية والترفية للموعظة كما استغلت، استجابة لفطرة الحياة في تربية الصغار.

وتعتبر الحدوتة أول لون من ألوان السرد القصصى عرفته الانسانية في طفولتها الأولى: فقد نشأت الحدوتة مع قدرة الانسان على الكلام في إطار ذلك المجتمع البدائى المحدد، والذى كان يضم الرجل والأنثى وما لهما من

أبناء صغار، ولا نستطيع ان نزعم أن الحدوتة في ذلك المجتمع البدائى كانت عملاً عقلياً وفكريا، ولكنها كانت فطرياً دفعت إليه غريزة البقاء.. فهى وسيلة من وسائل التوقى محافظة على رابطة هذا المجتمع من ناحية.. وصيانتة من الاخطار التى تحيق به من ناحية آخرى.. وعلى هذا يمكن أن نقول: إن الحدوته نشأت في إطار التحذير والتخويف من الضرر.. وتوجيه الأوامر والنواهى بتجنب الخطر، فهى لاشك أول عمل تربوى عرفتة الإنسانية منذ بدأت تحس بكيانها الانسانى في هذا الوجود.

والحدوتة نشأت على لسان المرأه.. فهى عمل من خلقها وإبداعها.. وما زالت إلى اليوم لاينازعها فيه منازع..

وقد نشأت الحدوتة أول ما نشأت في نطاق المحظور عند حدود الأمر والنهى.. والتخويف والمنع.. ثم أخذت تتطور مع قدرة الانسان على الرواية بزيادة محصوله من اللغة والالفاظ المعبرة.. ولعل الرؤى والقصص.. وتخيل الصور والوقائع.. وبخاصة تلك الأحلام الثقيلة التى يسمونها بالكابوس.. والتى تحدث نتيجة لما كان يتناوله الانسان من طعام غليظ ثقيل.. لما يعانية في بيئة من الأحزان والشدائد والأهوال المفزعة..

أيضاً استخدمت الحدوتة في التعريف بالوحوش المفترسة.. والأفاعى القاتلة.. والطيور الكاسرة، والجوارح المنقضة.. وكانت هناك الاعاصير الجائحة.. والصواعق الحارقة، والرعد القاصف، والبرق الخاطف، وتلك التوازل والأهوال التى لايدرى الانسان لها سبباً.. ولايعرف عنها خبراً.. إلا أنه يراها تقتل وتفتك وتجتاح الإنسان اجتياحاً.. فتثير كل هذه في نفسه ما

تثير من الخيالات والاوهام.. ويحاول أول ما يحاول ان يبتعد عن طريفها، وان يحمى نفسه من أخطاءها.(١)

وكان من الطبيعى أن تعكف الأم وهى الحاضنه الحانية على منع الصغار من التصدى لهذه المخاطر، وأن تلقنهم تجربتها لتجنب تلك المهالك، وأن تقص عليهم في ذلك ما تتمثلة عن الوحوش والافاعى والحيوانات الرهيبة، من الكائنات الخفية مثل المردة والجن والاشباح العجيبة، ومن هنا نبعت الحدوتة، والذى لاشك فيه أنها في نشأتها كانت ضئيلة الحجم، محدودة الخيال.. ثم تطورت مع تطور قدرة الانسان على السرد القصصى..

ويذكر د. مُحَمَّد الجوهرى في موسوعة التراث الشعب العربى أن الحكاية الواقعية أنواع تتمثل في:

أ ـ حكايات الواقع الأخلاقى وهدفها المحافظة على القيم مثل الأصالة والقناعة ومن أمثلتها (من أمنك لا تخونه ولو كنت خاين)

ب ـ حكايات الواقع الأجتماعى: وهى تكشف عن الصراع الطبقى، وعلاقات الفئات المختلفة، والعلاقات داخل الأسرة، والغنى والفقر.

ج ـ حكايات الواقع السياسى: وهى تكشف عن الحاكم المتسلط الذى شاء أن يتخلص من شيوخ البلد والأنصراف إلى مصلحته الخاصة.

د ـ موقف الإنسان من العالم الغيبى: وهى تعبر عن مخاوف الإنسان إزاء

---

(١) عبد الحميد يونس: الحكاية الشعبية، ص١١،١٠

العالم المجهول " القدر" المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين" الرزق "تمنه النقم".

٢ ـ القصة وأصلها اللغوى أيضاً يجعلها مرتبطة بالواقع ومنه (قص الأثر) أى تتبعه.. ثم تطور المصطلح ليستوعب فنون السرد جميعا.

٣ـ القامة الأدبية: وهو نوع أدبي ظهر على أيدى بديع الدين الهمزاني وغيره.. وكان له جذور في العصر الجاهلى حيث كان (يقوم) واحد من الراشدين في القبيلة بسرد حديث طويل متصل يختلف عن الخطبة.. وهذا الحديث يتناول خبراً أو حدثاً جرى أو تاريخا..

ويتعلق بالمقامة ما يسمى بالاسمار التى تحكى في مجالس الخاصة والعامة

٤ ـ الخبر: ويقصد به نقل حدث واحد أو واقعة واحدة فهو يستخدم السرد القصصى في توصيل تفاصيلة.. ووقائعة

٥ ـ المثل: أى الكلمه المأثور الذى له مقوماته وخصائصه والذى غالب ما يدل على خبر أو قصة أو حكاية وراءه.

٦ـ أما مصطلح الحدوتة ففي أصلها اللغوى تعنى الحدث أو الأخبار عنه في وقت واحد بهدف التسلية والترفيه استجابة لفطرة الصغار

وتقول الموسوعة الشعبية عن الحدوته م المصطلح محلى في مصر يكاد يرادف مصطلح حكاية خرافية بصفة خاصة. ولهذا المصطلح مرادفات كثيرة في الأقطار العربية. ففي الخليج العربي حزورة (حزاوى) وكذلك في تونس، وسالفة (سوالف)، وهى فلسطين حكاية، وفي العراق حجوة..

وهكذا. ولفظ حدوتة تحريف لكلمة أحدوتة في اللغة الفصحى، وتدل على الحكاية التى تسرد على الأطفال خاصة. ويغلب على الحواديت اللهجة العامية الخاصة بكل منطقة. وقد اشتهرت حواديت كثيرة لا تزال ترددها النساء العجائز خاصة. وقد أورد أحمد أمين في قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية نماذج من الحواديت، كما أورد رشدى صالح عدداً آخر منها في مؤلفه فنون الأدب الشعبى (١٩٥٦) ومنها حكاية جليدة، والديك الأخضر، ونص نصيص، وفرط الرمان، وكبى العسل وشيلين. وهناك مجموعات عربية آخرى في مركز التراث الشعبى لدول الخليج العربية، ومركز الفولكلورالعراقى، وغيرها من الجهات المهتمة بالفولكلور، وجميعها بحاجة لمن ينشرها حتى يستفاد منها.

أولى الدارسون عناية فائقة بالحواديت (الحكايات الخرافية) وبصفة خاصة من حيث أن فيها كنوزاً ثمينة من الناحية الفنية، فقد أرجعها فريدريش فون درلاين إلى تصورات ومعتقدات الشعوبوإلى الوصول روحانية وطوطمية وفيتشية. كما ظهرت مساجلات مهمة في القرن التاسع بين الأخوين جريم، وفون أرنيم في شأن هذه الحكايات. فبينما رأى الأخوين جريم ضرورة الحفاظ عليها كثروة فنية بكر تمثل الطبيعة الإنسانية على سجيتها ورأيا ضرورة تسجيلها بلغتها من أفواه الناس، رأى أرنيم أنه من الضرورى وضعها في ثوب فنى جديد على يد الأدباء والمثقفين.

وكانت دراسة الحواديت (الحكايات الخرافية) نقطة التحول في نشأة المنهج الشكلى على يد فلاديمير بروب الذى رأى أن الحكاية الخرافية تبنى

على عدد من الوحدات الوظيفية (الأفعال)، وهى لا تزيد بحال من الأحوالعن احدى وثلاثين وظيفة في أى حكاية وهى ١- تغيب أحد أفراد الأسرة ، ٢-التحريم أو التحذير ، ٣-ارتكاب المحظور، ٤- السؤال أو اختبار البطل ، ٥- تلقى معلومات عن الهدف (اوالبيان) ،٦- الخديعة ، ٧- الاستسلام للخداع (التواطؤ) ، ٨- الغدر أو الحرمان (الأذى) أو الشعور بالنقص ، ٩- التزام الحصول على الضالة ، ١٠- المساومة مع الشخصية الشريرة ، ١١-الخروج أو الرحيل ،١٢- الاختبار من الشخصية المانحة ،١٣- رد فعل البطل ، ١٤- تلقى الشىء المسحور ، ١٥- الانتقال عبر المكان (للعالم المجهول) ، ١٦- مقابلة الشخصية الشريرة والصراع معها ،١٧- إصابة البطل (علامة في البطل) ، ١٨- الانتصار على الشخصية الشريرة ، ١٩- إصلاح الضرر أو الحرمان (الحصول على الحاجة) ، ٢٠- عودة البطل إلى بلده ، ٢١- المطاردة (شخصية شريرة تقتفي أثر البطل) ، ٢٢- هروب البطل أو النجدة ،٢٣- الوصول غير المتوقع إلى بلد البطل ، ٢٤- البطل المزيف يدعى الحق لنفسه ، ٢٥\٢٦\٢٧-التكليف أو المهمة الصعبة ، ٢٨- البطل المزيف ينكشف (التعرف) ، ٢٩- الوضع الجديد للبطل (تحول الشكل) ، ٣٠- العقاب للشخصية الشريرة ، ٣١- الزواج (زواج البطل).

وقد اهتمت عدة دراسات عربية بالحواديث ، من أهمها دراسة نبيلة إبراهيم في كتابها قصصنا الشعبى من الرومانسية إلى الواقعية ، حيث لخصت فيه الخصائص الشكلية للحكاية الخرافية التى تنحصر في الاتى :

١- أنها تعيش في عالم المجهول المليء بالخيال والسحر والجن .

٢- شخوص الحكاية تميل إلى تسطيح فهى أشكال من دون أجساد .

٣- البطل تنقصة تجربة البعد عن العالم المجهول ، فهو ينغمس في عالم الخيال ويعيش فيه (عالم ذو بعد واحد).

٤- تعيش في عالم تجريدى لا حسى ويغلب عليها الأسلوب الانعزالى عن الزمان والمكان .

٥- يغلب على شخوصها ظاهرة التسامى .

وأماعن وظائفها فإنها تحقق للإنسان الشعبى حياة العدالة والحب التى يحلم بهما ، وتقدم جواباً شافياً عن السؤال الذى يدور بخلده عن مصيره ، وهى تقول للإنسان : هكذا عليك أن تعيش خفيفاً متفائلاً متحركاً مغامراً مؤمناً بالقوى السحرية في عالم الغموض . والحكاية الخرافية تحول كل ما هو ثقيل في عالم الواقع الى شىء خفيف مرئى.

والحواديث مشبعة بالرموز فتحول رجلاً ممسوخاً في صورة حيوان إلى رجل جميل عن طريق الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة (رمزا للشر الذى يتحول إلى خير عن طريق الحب الصادق) ، وكذلك المرأة التى ترتكب المحظور وتفتح باب الحجرة المظلمة وينكشف سرها فتفقد زوجها وحياتها الرغدة (رمزا للرغبة الملحة الكامنة في الإنسان لمعرفة المجهول وحب الاستطلاع الذى يمتلك في نفسه) . والفتاة التى يحبسها أبوها في قلعة في جزيرة نائية بعيدا عن الرجال (رمزا للتجارب التى تخوضها الفتاة منذ أن

تدخل في سن النضج إلى أن تتزوج) .

وفي بعض الحكايات تلخيص رمزى لمراحل نمو الإنسان :فحكاية الليمونات الثلاث المصرية ــالتى درستها نبيلة إبراهيم على سبيل المثال ــ تبدأ والبطل صبى صغير يبتلى بعشق الليمونات الثلاث . ثم تساعده شخصية خيرة بأن تمنحه الحصان السحرى والطعام ، فينجح في الحصول على الحيوانات الثلاثة . وينجح في المحاولة الثالثة في الاحتفاظ بالفتاة الجميلة التى تخرج من الليمونة ، ولكنه يفقدها بعد تدبير العجوز وسحرها الفتاة إلى حمامة طمعاً في الزواج من الفتى . وينكشف أمرها في النهاية ويفوز البطل ويتزوج بالفتاة. هذه الحكاية تلخص رحلة الإنسان مع تجاربه الداخلية ولا شعوره فهو يحاول أن ينفصل عن حضن أمه ، ويصل بعد ذلك إلى الوعى والنضج ، ثم أخيراً يصل إلى مرحله تحقيق الإنجاز والنجاح ويتزوج في النهاية .

وللحواديت العربية مميزاتها في البدء والختام وأسلوب القص. فالعادة أن تبدأ الحدوتة بأن يطلب القاص إلى المستمعين أن يذكروا الله ويوحدوه أو يصلوا على النبى من قبل : وحدوا الله .. كان فيه ملك وما ملك إلا الله ،أو صلوا على النبى ... كمان زيدوا النبى صلوا . وفي العراق تبدأ الحواديت بعبارة تقليدية : أكو ماكو ...، وعبارة كان ما كان وعلى الله التكلان ... وفي فلسطين سمعونا صلاة النبى . أما العبارات التى تقال بعد الفراغ من الحدوتة فهى عبارات تقليدية ايضاً من قبيل : توتة توتة فرغت الحدوته ، أو عاشوا في التبات والبنات وخلفوا صبيان وبنات ، أو لو كان

معايا طاقية كنت مليتها حمص وسمسمية ، وفي العراق تختم الحدوتةبالقول : لو بيته كريب جان (كان) جبتلكم طبك (طبق)حمص وطبك زبيب. وفي فلسطين تختم بعبارة حكايتى حكيتا في عبك حطيتا توتو توتوو فرغت الحدوتو.... وفي قطر تختم بالقول : ورحنا عنهم وجينا حتى شئ مما عطونا .....وهكذا في كل قطر عربى .

ولا نستطيع أن ننكر الفصل الكبير للحواديت وتأثيرها على الادباء سواء عن طريق مباشر أو غير مباشر ، فمازال يكتبون مستوحين في رواياتهم جو الحكاية الخرافية ، ومثال ذلك كتابات الأديب الألمانى هيرمان هيسى في حكاية "حلم الناس" وفي مصر يبدو تأثير الحواديت واضحاً في كتابات توفيق الحكيم ومنها مسرحيته يا طالع الشجرة ، ورحلة صيد التى يعيش بطلها في دوامة يختلط فيها الزمان والمكان ، وتتغير صورته في صور مختلفة وجه إنسان ووجه إمرأة شابة جميلة ، ورئيسة ممرضات .... وهكذا مما يظهر تأثير الحواديت في الإبداع الذاتى لدى الأدباء . (انظر مواد: حكاية شعبية ، أدب شعبى ، بروب فلاديمير). (إبراهيم عبد الحافظ) للمزيد انظر :نبيلة إبراهيم ، قصصنا الشعبى من الرومانسية إلى الواقعية ; عبد الحميد يونس ، الحكاية الشعبية ; رشدى صالح ، فنون الأدب الشعبى ، ج٢; مُحَمَّد طالب الدويك القصص الشعبى في قطر، ج١، ج٢ .

خصائص الحدوته:

حينما ندخل مجال الحدوتة فنحن أمام مرسل (الجدة أو الكبار) ومستقبل (الطفل أو المستمع) ــ والرسالة (القصة المحكية)

وتتميز الحدوتة بأنها تعتمد على الشفاهة حيث تنتقل من شخص لآخر بحرية كاملة.. وتتسم بالمرونة بمعنى أنها قابلة للإضافة والحذف أو التعديل اللغوى أو تغيير الأحداث بما يناسب المتلقى ومزاجه الخاص..

ومن ثم تلتقى وظيفة الإمتاع ووظيفة التثقيف معا فينتج الإحساس بأثر الوظيفة الثانية لدى المتلقى ويختلف من متلقى إلى آخر، فقد تختلف حدوتة عن آخرى في مقدار ما تقدمة للمتلقى من اقناع او تثقيف ولكن تظل كل حكاية متضمنة للمتعة والتثقيف معا.

كما تنفس الحدوتة عن رغبات الطفل المكبوتة، وتساعدهعلى تنمية المحصول اللغوى.

وعلى تكوين الميول والاتجاهات الإيجابية نحو القيم الإنسانية الأصلية والموجودة في المجتمع الذى نعيش فيه.

كما تشبع الحدوتة حب الاستطلاع لدى الطفل من خلال الأسئلة التى يطرحها على الراوى أثناء الحكى لمعرفة النهاية للحدث الذى يحكى.

خصائص الحدوتة:

حينما نقصد الحدوتة فنحن أمام مرسل (الجدة أو الكبار) ومستقبل (الطفل أو المستمع) والرسالة (القصة المحكية)

وتعتمد الحدوتة على الشفاهه فهى تنتقل من شخص لأخر بحرية تامه.

وتتسم بالمرونة بمعنى انها قابلة للتطور بحيث يضاف إليها أو يحذف

منها أو تعدل عباراتها ومضامينها وعلاقاتها على لسان الراوى، وذلك تبعاً لظروف بيئتة الاجتماعية او تبعاً لمزاجه.

تقوم أحداثها على فطرة الحياة واستغلال ذلك في تربية الأطفال.

وتبدأ الحواديت عادة بعبارات واحدة (كان يا ما كان ما يحلى الكلام إلابذكر النبى عليه الصلاه والسلام) أو (في قديم الزمان شمس بتضحك وقمر بينام) والقصد من ذلك هو تهيئة ذهن المتلقى لسماع الحدوتة بشىء من الاهتمام، ولعل السبب أيضاً هو محاوله من الراوى أن ينقلنا إلى عالم الطفولة لهذا الوقت المتصور خارج الزمن الذى يترك فينا انطباعاً قديماً بالخلود.

وتبدأ الحدوتة بأحداث بسيطة واقعية لتقفز بنا إلى احداث خيالية نترك فيها العنان لخيالنا لنعود بعد ذلك إلى الواقع مرة آخرى بعد قول الراوى (توتة ـ توتة خلصت الحدوتة .. حلوة ولا ملتوتة)

تنتهى أحداث الحدوتة دوماً بنهايات سعيدة كزواج الأمير من البطلة أو تحقيق العدل أو انتصار الخير على الشر حيث تغلب سمة التفاؤل على الحدوتة.

ترتبط رواية الحدوتة بالمرأة، حيث ان الحدوتة نشأت على لسان المرأة وأنها عمل من خلقها وابداعها وما زالت إلى اليوم لا ينازعها فيه منازع، واشير إلى ذلك حيث قيل تحكيها العجائز، أو بعض البيوت الكبيرة تكون العجائز المصدر الأول لهذا النوع.

لا تحتوى الحدوتة على عدد كبير من الشخصيات فهى محدودة لأن احداثها لا تستغرق زمناً طويلاً فقد تحدث الأحداث يوم أو قد يتكرر الحدث لمدة ٧ أيام أو ٧ مرات.

تستخدم في الحواديت بعض العبارات التى يكون لها وقع موسيقى على أذن المتلقى (الطفل) والتى تساعد كل من الراوى.

تنتهى الحدوتة بصيغ ختام معروفة وتقليدية مثل توتة توتة فرغت الحدوتة/ خلصت الحدوتة . حلوة ولا ملتوتة و" اتجوزوا وعاشوا في تبات ونبات .. وخلفوا صبيان وبنات .. فرغت الحدوتة ولو كان معايا الطاقية كنت جبتلكم شوية شعرية .. ورواية آخرى توتة.. توتة.. فرغت الحدوتة، ولو كانت طاقيتى مهرية.. كنت مليتها شوية شعرية من عند خالتى سلية."

تتنوع شخصيتها مابين الإنسان والحيوان والجماد، واحداثها تتم في الجبال وفي الأنهار الترع وغيرها على الرغم ما تمثلة من عالم الواقع، فإنها في واقعها الدبى والفنى لاترتبط بطبيعة المكان التى تدور فيه احداثها ولا بواقع الزمان بمعنى انها عل الرغم من تحديدها لشخصيات واحداث انما هى في النهاية تصوير لعالم الإنسان كما في خياله.

تحكى الحواديت ليلاً.

يكون جمهور الحدوتة ان لم يكن جميعة من الأطفال.

أهمية الحدوتة بالنسبة للطفل:

تنبع أهمية الحدوتة من كونها تحمل الطفل إلى عالم من الخيال الواسع

الذى يتحقق فيه كل ما يتمناه، فالطفل يفضل العيش في سلام بعيداً عن أرض الواقع المرير، بل وتسهل له ارتياد دنيا الأحلام، فالحواديت تعكس صورة الطفل وأسرتة وحياتة وتقدمها له بصورة واضحة.

ومن الملاحظ ان الحدوتة تغلب عليها صفة التفاؤل، فرغم من أنها تنقل وتصور هموم ومشاكل ومخاوف البشر، إلاأنها في النهاية تحقق انتصاراً للخير وإرساء العدالة. وهذه الحواديت لها أكبر الآثر في نفوس الأطفال، فهم يتعلمون الكثيرمن خلال استمتاعهم بها أكثر مما تعلمهم بعض الحكايات الخيالية التى تكتب لهم اليوم.

هذه الحواديت يمكن ان تكون تعبيراً عن رغبة الإنسان في تغيير وجودة وحياتة حتى تقلل بعض الصراعات التى من الممكن ان تؤدى في النهاية بشخصيتة إلى التصدع والأنهيار ومن هنا كان الشبه كبير بين الحلم والخرافة فكلاهما يعيشة الإنسان بلا حدود ودون أن يقلق الواقع.[1]

عناصر الحدوتة:

الحدوتة في تكونها ومضمونها لابد أن يكون بطلها وحشاً مفترساً.. أو أفعى هائلة أو مارداً جباراً، أو جنا خفياً، او شيئاً غريباً، حتى اذا كان إنساناً فلا بد أن يظهر في تلك الصورة الرهيبة التى تحمل طابع الغرابة والمبالغة في التخويف والترهيب، مثل "أم الغولة" و"أم الشعور" أو "أبو رجل مسلوخة" و"أبو فروة" إلى آخر الشخوص التى عرفها كل منا

---

(1) فاطمة حسين المصرى: الشخصية المصرية من خلال دراسة الفولكلور الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٤ ص ٩٦

وانطبعت في ذهنه صورة عنها منذ الصغر..وكل شيء في الحدوتة يتكلم، الحيوانات والأفاعي والطيور.. وكذلك الاشجار والأحجار والأعاصير، حتى الجن الذى لايرى، والمارد الذى هو من صنع الخيال، وهذا لاشك أثر من اعتقاد الانسان في حياتة الاولى يوم كان يعيش مع الطبيعة مع الطبيعة وجهاً لوجه، وكان يرى هذه الكائنات والأشياء تحت بصره.. وهى تتحرك وتقتل وتفتك، وتعوق سيرة في الطريق، وتضايقة في شئون الحياه فيعتقد أنها حية.. لها إرادة، وفيها قدرة النطق، وحرية العمل مثل الانسان، فيحاول أن يتغلب عليها بالقوة إن استطاع، والإ فبالحيلة، أو بالترضية.. أو بالهرب منها.. وهذا أمر مألوف في منطق الطفولة إلى اليوم: فإننا نرى الطفل إذا ما عثرت قدمه في حجر انهال على الحجر شتماً وركلاً.. وكأنه طفل مثله ينتقم منه، ويرد الاساءة إليه!

وإذا ما نبحه كلب قذفه بحجر إن استطاع ذلك، أو أسرع بالهرب منه، او ترضاه بشيء مما في يده من الطعام..

ويبقى أن نعرف أن أكبر قسط من تراث الامم في الحكم قد وصل إلينا على ألسنة الحيوانات والطيور.. ويكفي أمثالاً لذلك كتاب كليلة ودمنة، وذيوعه في الآداب العالمية.

والحق أن الحدوتة أول لون عرفه العالم من ألوان الأدب الخائل.. وهى بخيالها الساذج المغرق في الغرابة والموغل في الخوارق والتهاويل تعتبر صورة صادقة لإدراك الانسانية في طفولتها الاولى، ثم هى أيضاً صورة ملائمة دائماً لنزعة الطفولة وإدراكها على مدى الزمن، وهذا هو سر بقاء الحدوتة

عبر العصور الطويلة وذيوعها بين مختلف الشعوب.

وأثر الحدوتة وتأثيرها في المجتمع الانسانى أمر لايستهان به أبداً، فهى بهدفها التربوى قامت ومازالت تقوم بدور خطير في التهذيب، وكبح عنان الطفولة الجامح بالتحذير والتخويف، وهذا مما لاشك فيه أجدى تربوياً من وسائل الضرب والزجر التى تغرس في نفس الطفل البغض والحنق والنفور، وإليها يرجع كثير من الأثر في ترابط الأسرة. فهى تنشىء الطفل على حب الأم واحترام الأب، وتقدير الأخوة وإيثارهم، وانما يكون للحدوتة كل هذا الأثر لأنها تلقى إلى الأذهان الغضة التى تتقبل كل شيىء، وتتشبع به.. فتبقى الصور والدلائل التى تتحملها الحدوتة راسخة في تلك الأذهان على مدى الحياه.. حتى وعندما تخلى عنها العقل الظاهر في فترة من فترات تلك الحياه.. فإنها ظلت مرتبطة بما يسميه علماء النفس بالعقل الباطن.. فتؤثر في سلوك الانسان على غير وعى منه.. لأنه تأثير ترسب فيما وراء الشعور..

وربما بالغ هؤلاء الباحثون في تأثير الحدوتة الإيجابى على الطفل.. فليس كل ما يخيف يمكنه أن يغرس قيمة إيجابية في وجدانه.. خاصة في تلك المرحلة العمرية الصغيرة التى يتكون فيها العقل.. حتى إننا قد نجد الإنسان حينما يشب ويكبر.. يعانى خوفاً من فكرة معينة هاجمت واستقرت في تفكيره وهو صغير..

ومن ثم ـ ونحن في عصر يبتعد عن الخرافة ـ علينا أن نأخذ هذه الآراء بحذر مع طفل اليوم الذى يتميز بالجسارة.. والعنف ـ أحيانا ـ والمعرفة بكل

شيء من خلال وسائط التكنولوجيا الحديثة ويحتم علينا ذلك أن نطور من المفهوم والمغزى والأفكار التى تتضمنها الحدوتة بما يلائم العصر..

وعلى العموم فالأسرة هى بيئة الحدوتة، فالحدوتة تتحدث إلى الأبناء عن الأباء والأمهات، وعن كل ما يجرى في نطاق الأسرة، وما لها من أوضاع وارتباطات فهى توجه الحديث إلى الخير دائماً وإلى هدهدة نفوس الأبناء الغضة بالأمانى الجميلة، والأمال الحلوة.. وتدلهم على أن العمل الطيب له ثمرته الطيبة وأن الخير جزاءة الخير.. وأن الشر عاقبتة الشر والبوار..

ومن ثم فالحدوتة بهذا الأسلوب الإيجابى تحدث تأثيراً إيجابياً في عقلية الصغير..

والحدوتة في أدائها وأسلوبها تجرى على نسق تربوى رائع: فهى في دور الطفولة الغضة تتحدث إلى الأطفال بصيغة الجمع: أى إلى الولاد والبنات معاً، وتكون في صورة بسيطة ملائمة لإدراك الأطفال في الفترة الأولى من حياتهم، فيكون قوامها حادثة بسيطة قصيرة، ولا يزيد أبطالها على شخصين أو ثلاثة.

أما في مرحلة النضج، فإن الحدوتة تتحدث حديثاً خاصاً إلى كل من الأولاد والبنات: بمعنى انها تتحدث إلى الأولاد بما يلائمهم والبنات بما يلائمهن، ثم هى تتسع في نطاقها، فيطول فيها السرد القصصى، وتعدد فيها الأبطال .. ولا بأس من أن يكون الأبطال من جنس مدهش مخيف..

أو قوة خفية خارقة، مثل: الوحوش والجن والعفاريت[1]

والحدوتة في أدائها تقاليد معروفة في المجتمع المصرى: فإذا كانت الجدة مثلاص تتحدث إلى صغيرها أو إلى مجموعة من الأطفال الصغار . فإنها لا تبدا بالحديث بوقائع الحدوتة بل لا بد أن تهيىء أذهانهم بعبارة مشوقة: كأن تقول لهم "حدوتة بالزيت ملتوته تحب تاكلها ولا تسمعها"، فيقول الطفل: "أسمعها".. ثم تمضى في سرد الحدوتة.. فإذا كان الطفل أو الأطفال كباراً في سن ناضجة فإنها تبدأ الحديث بالعبارة التقليدية المألوفة فتقول: "كان ياما كان ..يا سعد يا كرام.. ما يحلى الكلام إلابذكر النبى عليه الصلاة والسلام"...

الحكاية بعد الحدوتة:

الحكاية الشعبية فهى كانت طوراً جديداً في حياة الانسان القصصية.. نشأت مع الانسان الناضج في الحياة المدنية ذات الجماهير الفقيرة، ذات المتاعب والمصالح المشتركة المتشابكة..

وبعد ان اكتمل الأداء اللغوى عند الإنسان.. ونضجت فيه القدرة على السرد والنقد والملاحظة الشخصية، وأصبح يملك قدراً كبيراً من الذكاء البارع يساعدة على تزجية مالديه من نقد على ملاحظة في أسلوب قصصى مدهش يقوم على المحاكاه.[2]

---

(1) (محمَّد محمَّد الجوهرى: موسوعة التراث الشعبى العربى، مكتبة الدراسات الشعبية، هيئة قصور الثقافة، ج ٤، ص١٧٧)

(2) عبد الحميد يونس: الحكاية الشعبية ،ص١٩

واذا تأملنا الحكاية في صورتها التعبيرية نجدها لوناً من ألوان التمثيل الكلامى الذى يعتمد على فرد واحد هو الذى يبتدع الحكاية، ويتصور وقائعها ويرويها للناس، وأبناء الريف المصرى يفهمون هذا المعنى التمثيلى في مدلول الحكاية فيسمونها بالمثل، ويقولون: فلان يروى "مثلات" أى حكايات

الحكاية والحدوتة:

ان الحكاية صورة اجتماعية أكمل وأشمل من الحدوتة.. وان موضوعها أوسع نطاقاً وأرحب مجالاً فهى اسلوب اجتماعى هدفه الإصلاح والتقويم والتوجيهه والمدافعة في مجال الحياة العامة، وعلى هذا نجد فيها النقد اللاذع، والسخرية المرة، والفكاهة الضاحكة اللاذعة، كما نجد فيها إثارة العبرة الرادعة، أو القدرة النافعة، او الإقناع بحقيقة الواقع الأليم الذى تتجنبة النفوس.

والحكاية وعاء لكثير من أحداث التاريخ، وتصوراً دقيقاً لوقائع هذا التاريخ يدل على صدق الإحساس الشعبى العميق بهذه الوقائع، ولهذا يجب أن تكون الحكاية الشعبية من المصادر التى يعتمد عليها إذا اردنا ان تقدم في صورة حية لروح الشعب الذى نسجل عنه.

والهزات والتاريخية تتناقل بين الناس عن طريق الحكاية الشعبية.. أيضا شكل البيئة وطبائعها وهذا النوع من الحكاية تزيغ وتشبع بين الناس وقد تكون دقيقة رائعة في موقعها، واحياناً تختص الحكايات التى تروى في المناسبات ولهذا السبب تموت هذه الحكايات وقد تعود إلى التطور مرة

آخرى في مناسبة مماثلة، او مقاربه.. لكن في شكل يتفق مع المناسبة الجديدة..

المخلوقات ولعل الحصان الطائر في حكاية الحمال والبنات الثلاث أو طائر الرخ في حكاية السندباد أوضح مثالين على ذلك . وهذه الحكايات الشعبية تتميز بالغنى والثراء على مستوى القيم التي تنشدها والمتعة التي تحققها، وهي لتحقيق ذلك تتخذ سبيلين :

- العرض القصصي للحدث أي سرد الحكاية بتفاصيلها

الحكاية الشعبية

تقديم

تعد الحكاية الشعبية من أهم وأقدم ما ابتدعه الإنسان، فهي ذاكرة قديمة تعبر عن مشاعره، وأحاسيسه، وواقعه، وتخيلاته، وتصوراته، فهيترتبط بالواقع وتعطيه صيغة خيالية تأملية، لتحسن التعبير عن حدوثها في الواقع.

وتتسم الحكاية الشعبية بكونها «ثمرة تفكير إنساني، وهي ليست عمل فرد بذاته. بل هي من صنع الجماعة الإنسانية والمجتمع، » وهي عريقة مأثورة، انتقلت من جيل إلى جيل، ناقلة ومصورة للحياة الواقعية بأسلوب واقعي، ذاكرة لخصائص الجماعة الاجتماعية، والعقائدية، والتاريخية، والعرقية، والثقافية واصفة لأحداث وعادات وتقاليد الجماعة، وهى تجرد الأحداث وتصيغها صيغة خيالية كى تعتمد على الرمز والمجاز، وهي تعتمد على السرد لإثارة المتلقي، بنقدها اللاذع، وسخريتها المرة، وفكاهتها الضاحكة، وعبرتها الرادعة.

نبيلة ابراهيم أشكال التعبير في الأدب الشعبى

وقد فرق علماء المأثورات الشعبية، بين العديد من أشكال الحكاية الشعبية، بحيث تعددت أنماطها فتجد الأساطير، والسير الشعبية، وحكايات الجان، والحكايات العجيبة، وحكايات العادات، وحكايات الحيوان، والحكايات المرحة، وحكايات الحياة المعاشة. ولعل القاسم المشترك

بين هذه الأنواع هو أهميتها في الحياة اليومية، بحيث يجد فيها الإنسان متنفسه من كل أنواع الضغوط الاجتماعية، وكذا خروجه من قيده الزماني والمكاني، وتعبيره عن كل ما يجول في خاطره دون قيد، إلا قيد الحفاظ على الموروث الثقافي الذي يحمل في ثناياه قيما اجتماعية مثالية، بالحفاظ عليها يحافظ على وحدة المجتمع المدني إلى المجتمع الشعبي، وكذا تطور وسائل الإعلام والتكنولوجيا.

تعكس الحكاية الشعبية لنا الجوانب المختلفة للإنسان ، فهي وعاء يحتوي على مخزون ثقافي من إنتاج الجماعة يستهلكه ويجدده حسب حاجته. ولا أحد ينكر ما لهذا الأدب الشعبي من قيمة كبرى، يحاول البعض استخراجها، انطلاقا من بحثهم المتواصل في ثنايا هذا الأدب الزاخر بالقيم والرموز، التي ما زالت موشومة في ذاكرة كل فرد.

مفهوم الحكاية الشعبية

وقد ذهبت بعض الموسوعات العلمية – مثل موسوعة انكارتا الرقمية ENCARTA– إلى أن الحكاية الشعبية تعني مختلف أنماط القول الحاملة أو الناقلة للفكر سواء عن طريق اللفظ (الشفوي) أو الخط (المكتوب). بينما تذهب الموسوعة الكونية **Encyclæpedia universalis**– إلى اعتبار أن الحكاية الشعبية تتحدد ب "الشفوية والثبات النسبي في بنيتها وأخيرا بقيامها على التخيل" .فما نعنيه بالحكاية الشعبية إذن كل أنماط القول من حكي وأسطورة ونادرة وقصائد مغناة وخرافات والحكايات الممثلة بالحيوان والتي كانت أساسا تنتقل انتقالا شفويا "من الفم إلى الإذن" والتي تقوم في بنائها القصصي

على الخيال **fiction** والعجيب **merveilleux** والخارق **fantaisie** والميثولوجي واللامعقول **irrationnel** والمعقول **plausible** أحيانا أخرى .[(١)]

خصائص الحكاية:

١ـ الحكاية الشعبية عريقة أى أنها ليست من ابتكار لحظة معروفة أو موقف معروف ولكنها موغلة في القدم تحيط بكثير من الأجيال المتعاقبة إلى أن تصل إلينا.

٢ـ أنها تنتقل من شخص لآخر بحرية فلا يزعم أحد أن له الفضل وحده في وجودها ويكون هذا الإنتقال في الغالب عن طريق الرواية الشفهية حيث تسمع وتردد بقدر ما تسعف ذاكرة الراوى وربما يحكيها كما سمعها أو يضيف من عنده أو ينقص من أحداثها تبعاً للظروف التى تحيط بالحكاء وبجمهور هذه الحكاية.

٣ـ أن الحكاية الشعبية تتسم بالمرونة العريقة بما يجعاها قابلة للتطور بحيث يضاف إليها أو يحذف منها او تعدل عباراتها ومضامينها وعلاقاتها على لسان الراوى الجديدة تبعاً لمزاجه أو موقفة أو ظروف بيئتة الإجتماعية. وفي جميع الأحوال فإن وظيفة الحكاية الشعبية هى الأساس الذى يتحكم في الثبات أو الخوف أو الإضافة أو التعديل وقد يكون الإنتقال أدبياً خالصاً وذلك إذا كان الأصل في الحكاية التدويين من ناحية وتحقيق عبقرية مفردة لأديب معروف من ناحية آخرى.

---

(١) عبد الحميد يونس الحكاية الشعبية ص ١١

عبد الحميد يونس الحكاية الشعبية ص ١١

ولعلنا لا نختلف ان نحن اعتبرنا الحكاية الشعبية في شكلها المكتوب الرسمي قد مثلته حكايات شهرزاد في "الف ليلة وليلة " ونصائح بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك في "كليلة ودمنة " وربما أيضا في "رسائل الجاحظ" و"رسالة الغفران " للمعري وسيرة ابن هشام ..وصولا ربما الى سيرة الجازية الهلالية كما رواها وقدمها مُحَّد المرزوقي .. علما وان هذه الحكاية تروى من السلف الى الخلف مشافهة قد لاتصل ابدا بنفس الصورة الاولى فهناك دائما الراوي الذي يتحكم في بنية الحكاية وفق مقتضيات المجتمع الذي يعيشه ووفق مقتضيات بناء الحكاية فالراوي هو مركز الرواية ومصدرها بعد ان نكون نسينا مصدرها الاول – لان اغلب الروايات او الحكايات مجهولة المصدر ولا يعرف لها قائل حتى اننا نعتبر الى اليوم جداتنا مصدر هذه الروايات التي نحفظها منذ الصغر . فالحكاية الشعبية اذن بهذا المعنى هي من "الأدب الحي والمتحرك " حسب عبارة **Bernadette Bricout**في الموسوعة الكونية . مع ان بها عناصر ثابتة او شبه ثابتة في كل الاجيال او حتى على اختلاف المجتمعات خاصة تلك التي تحمل ذات الموروث مثل المجتمع العرب.[١]

لذلك فالحكاية الشعبية لها خصائص هذه الحياه في مرونتها وتطورها، ويتضمن التراث الشعبى الأدبى كثير من المعتقدات والتقاليد الموروثة ومرونه التطوير في الواقع الإجتماعى المتغير، والتى يشكو في تطور ومن تناول

---

(١) (أحمد بسام: مقومات الحكاية الشعبية من خلال اللاذقية في التراث الشعبى العدد الثالث ١٩٨٠ ص١٢٣)

العادات والتقاليد يأخذ منها ما يناسبه ويدعو إلى تغيير ما يحتاج منها إلى تغير، معنى أن الأدب الشعبى يأخذ بالثابت ويؤكده، ويدعوا إلى التغيير فيما هو قابل للتغيير، هناك أيضاً الوظيفة الإجتماعية للحكاية الشعبية فالإنسان منذ أن هبط سطح الأرض وتمنى حياه يسودها العدل والحب، ومن هنا جاء الأدب الشعبى والحكاية الشعبية جاءت تستطلع من خلال العقلية الإنسانية الشعبية المبدعة الإجابة على تساؤل الإنسان عن كيفية تحقيق هذه الحياه، وإن عجز الإنسان عن تحقيقها في الواقع فلماذا لايحققها في الخيال ويتم ذلك في حدود منطق الحكاية الشعبية الخاضع للتأويل فالحلم ليس إذا ثورة على الواقع بقدر ما هو مسألة الإمكانية محاولة تغييره إلى الأفضل وفي حدود ما كتب على الإنسان، وأيضاً في حدود قواعد دستور الشعب، الذى يعطى كل ذى حق حقه في الحكاية الشعبية، ويجازى كل من يخطىء.[١]

وهناك الجانب النفسى الوظيفي للحكاية الشعبية، وهو ذات الجانب الذى منح الإنسان الأستقرار النفسى والنظرة المتفائلة للحياه فالتفاؤل سمه غالبه على القصص الشعبى، ويظهر ذلك في النهاية السعيدة والتى تختتم بها غالبية الحكايات الشعبية والتى تحاول بهذه النهايات وضع الأمل في تغيير الواقع المؤلم إلى مستقبل أفضل خاصة وان استطاع الإنسان أن يتبع كل الأعمال الطيبة التى جاءت بها الحكاية وكأن الحكاية تسلط الضوء على السبب الحقيقى لتعاسة الإنسان وهو الإنسان ذاته، فالعالم لن يتغير الإ اذا غير الإنسان من نفسه والطريق سهل تحدده له الحكاية الشعبية من

(١) (نبيلة إبراهيم: قصصنا الشعبى من الرومانسية إلى الواقعية، بيروت دار العودة ١٩٧٤

خلال رموزها البسيطه الواضحة.

وعندما يعجز الإنسان عن استخدام امكانيات لنيل هذه السعادة فأقام عدد من الوسائل المساعدة، إما وسائل غبية كالسحر، او وسائل انسانية تتمثل في الذكاء الإنسانى الخاص، وبهذه الوسائل أو بإيها تمكن الإنسان أن يغير من واقعة في عالم الحكاية الشعبية وكأن الحكاية الشعبية في هذا المنحى محاولة خيالية لهروب الإنسان من الضغوط الواقعة عليه قبل المجتمع سواء أكانت هذه الضغوط جنسية أو غير ذلك، أيضاً تساعد الحكاية الشعبية الإنسان على الهروب من عاملة الجغرافي إلى الامكان، ومن عاملة البيولوجى بإكسابة العديد من القدرات الخارقة الطيران بمساعدة الطائر الخرافي أو الجن وقيامه بما لا يستطيع غيره من البشر القيام به وهذه هى أهم وظائف الحكاية الشعبية، والتتنحصر في الوظيفة التعليمية والإجتماعية والنفسية، تلك الوظائف التى تجسد بشكل رمزى من خلال عالم الحكاية الشعبية ذلك العالم المنفرد بملامحه وحدوده ومن منطقه.[1]

انتشار الحكاية الشعبية

وتتشابه الحكايات الشعبية الى حد ما–لدى الشعوب المختلفة لأنها ترجع الى أصول عالمية مشتركة ورثتها الأجيال عن الأمم البدائية ولكن الحكايات تظل مطبوعة بطابع البيئة التي تروج فيها ويظل كل شعب يحكيها بطريقته الخاصة التي تتأثر بما ينشأ لدى الناس من مواقف إزاء حياتهم الواقعية وما يحيط بهم من ظروف وتحديات.

---

(١) (مجلة المأثورات الشعبية العدد الثانى والثلاثون أكتوبر ١٩٩٣ ص١٩)

والادب الشعبي بما فيه من الحكايات لا يقتصر على ما يتناقله الناس من جيل الى جيل بل هو أشمل من ذلك بكثير، حيث يمتد ليشمل النصوص المبثوثة بين طيات الكتب ورددتها جماهير الشعب في حينه وسجلها الكتاب كحقيقة ودليل على تيارات الفكر السائدة في ذلك الحين.ولم يقيد التدويين من حركتها الشفهيه وعليه نجد أدبا شعبيا مرويا وآخر مكتوبا وللحكايات الشعبية كثير من الطرافة والجاذبية والشاعرية وكثيرا ما استلهمها الكتاب والرسامون وواضعو الألحان واستوحوها في إبداع مؤلفاتهم.(١)

وكان بوشكين الشاعر الروسي الكبير يحب الاستماع إلى الحكايات التي كانت تحكيها مربيته العجوز وقد كتب يقول عن تلك الحكايات: ما ابهج تلك الحكايات إن كل واحدة منها قصيدة شعر.

والثابت أن المجتمعات الإنسانية عرفت هذا النوع من الأدب، والذي يطلق عليه عادة الادب الشعبي بمختلف أشكاله التعبيرية ، ورغم التعريفات التي أعطيت لهذا النوع باعتباره كل ما أبدعه الإنسان من أشكال التعبير كانت نظما اونثرا بلغة يتكلم بها إفراد أمة ما سواء عرف مبدعه أو لم يعرف ،فان هذا التعريف يظل قاصرا، لأننا نجد أنفسنا أمام مجال واسع وفضفاض يتسع لأشكال كثيرة من أنماط التعبير من أمثال وألغاز وأشعار وحكايات ... تعبر عن إبداع طبقة من الشعب ليس لها ثقافة تؤهلها للتعامل مع الأدب النخبوي كما هو الحال في الأدب العربي الفصيح .

---

(١) نبيلة ابراهيم أشكال التعبير في الأدب الشعبى
(صفوت كمال: مدخل لدراسة الفولكلور الكويتى، ص٥٦)

وهذا التنوع في الأدب الشعبي يرجع فيما نعتقد إلى سببين رئيسين: رحلة الإنسان الطويلة مع هذا النوع، وحاجته إليه للتعبير عن رؤاه ونظرته للحياة والطبيعة وشكل من أشكال أسماره ، وثانيا هذه المرونة التي تميز هذا النوع، حيث نجده قابلا للتغير والإضافة والزيادة والتكيف وذلك بتغير الزمان والمكان والراوي، بمعنى أن الذاكرة الإنسانية لها القدرة على التعامل معه بحرية كبيرة ومن خلال تفاعلها مع أحداث المجتمع ،ولعل من أهم أشكال هذا الأدب ما يعرف بالحكاية الشعبية ، أو أحيانا الخرافة رغم الفرق بينهما ذلك أن الحكاية الشعبية ذات بنية بسيطة وتؤخذ مأخذ الحقيقة.

الراوى والحكاية الشعبية:

ويشكل الراوي وسيطا مهما بين الخطاب – مضمون– والمخاطب – المستمع ، أما مصدر الحكاية بنوعيها أي – المؤلف– فهو غائب وحضوره ليس ضروريا ، فالمتلقي يهمه متن الحكاية وشكلها وعناصر الإثارة فيها ،فهو لا يهمه حتى مدى مطابقة الحكاية للواقع وتبرز وحدة التفكير البشري في الحكاية وغيرها في هذا التشابه الموجود بين حكايات الشعوب ، فما يتغير هو البيئة والأسماء والطبيعة أما مضمون الحكاية فيظل ثابتا، ومعلوم أن هذا الشكل الإبداعي هو من أقدم الفنون التي أنتجها الخيال الإنساني الشعبي تعبيرا عن نظرته للحياة وموقفه من عناصر الكون أوتعبيرا عن عجزه على تحقيق أمنياته في الواقع وفي نفس الوقت تمريرا للعبر

والحكم عندما تروى...[1]

والواقع أن هذا النوع موجه للجميع ، كل حسب درجة تمثله للحكاية وفهمه لها وقد أدرك ابن المقفع ذلك في مقدمة كتابه الشهير كليلة ودمنة يقول« وقد جمع هذا الكتاب لهوا وحكمة فاجتباه الحكماء لحكمه والسخفاء للهوه أما المتعلمون من الأحداث وغيرهم فنشطوا لعلمه وخف عليهم حفظه » هكذا يدرك ابن المقفع ما تتضمنه هذه الحكايات من حكم ولهو واخذ العبرة والاستفادة.

والملاحظ أن التراث العربي لم يول اهتماما كبيرا لهذا النوع من الآداب ،فقد انصب الاهتمام على الشعر العربي وبعض أشكال السرد الأخرى كالخطابة...وظل هذا النوع هامشيا حتى عند النقاد المعاصرين، ويعود السبب إلى ضعف البناء اللغوي لهذا الفن وعناصر أخرى لا تلائم الذوق العربي العام ، ولعل أبرز مثال كتاب ألف ليلة وليلة والذي له شهرة واسعة في الغرب، فعندما نقل إلى اللغات الأوروبية حاول المستشرقون التوفيق بين الأصل الشرقي والذوق الغربي العام كما فعل المستشرق الفرنسي انطوان جالان عندما ترجم الكتاب سنة ١٧٠٤ م .

فألف ليلة وليلة لا يخلو من هذا التصور الحكائي والخرافي خصوصا عند حضور الحيوان كما هى الحال في كليلة ودمنة ، وأبطال هذه الحكايات ليسوا دائما آدميين بل قد يكون من الحيوان أو مخلوقات أخرى

---

(١) (نبيلة إبراهيم: لغة القص في التراث العربى القديم (مقال . مجلة فصول . الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة . مارس ص ١٧)

لها طاقات تفوق طاقة بني البشر، لكن ما يشد الانتباه هو النهاية السعيدة حيث ينتصر الإنسان ، أي انتصار الخير على الشر بواسطة ذكاء الإنسان أو حيلته...وهذا التصور الخرافي ليس جديدا فقد كان سائدا في المجتمع، مستمدا صوره من المعتقدات والأساطير القديمة والتي ما زال بعضهاحاضرا إلى اليوم .ففي كتاب عجائب المخلوقات للقز ويني نجد ذكرا لهذه.

– الهدف الأخلاقي هو المغزى أو الخلاصة من الحكاية

وتتجلى كذلك وحدة التفكير البشري في بداية الحكاية العربية الشعبية حيث تبدأ غالبا (بكان يا مكان) ،ثم إضافة لازمة أخرى تختلف باختلاف المكان ففي مصر تبدأ الحكاية عادةً بالنص"كان ياما كان في سالف العصر والأوان وما يحلى الكلام إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام" وفي العراق مثلا يضيفون "كان يا مكان الله ينصر السلطان"، وفي المغرب "كان يا مكان الحبق والسوسن في حجر النبي العدنان" . بل نجد أحيانا امثالا وألغارا وحكايات في الكويت أو سوريا...لها ما يقابلها في المغرب أو الجزائر، بل ما يقابلها حتى في الآداب الغربية ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، [1]

(إن قيمة الحكاية الشعبية العربية تستمد قوتها انطلاقا من هذا التفاوت الكبير بين اللغة العامية الشعبية واللغة الفصحى، لذلك عرف هذا النوع من الأدب ازدهارا كبيرا بخلاف اللغات الأوربية حيث لغة الكتابة هناك قريبة من

---

(1) (مجلة المأثورات الشعبية العدد الثانى والثلاثون أكتوبر ١٩٩٣ ص٢٥)

اللغة العامية لذلك كانت الانتاجات في هذا المجال ضعيفة لديهم.

نخلص مما سبق إلى إن الحكايات الشعبية تراث سردي غنى.

وتتميز الحكايات الشعبية ببعض الخصائصحيث إنها تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق الرواية الشفوية،بواسطة الراوي الذي يرددها حسبما تسعفه الذاكرة وكثيراً ما يضاف إليها أو يحذفمنها، وربما يحكيها كما سمعها.

ولها صفة العالمية فنجد الحكاية الواحدة منتشرة فيكثير من بقاع العالم، لكن من الملاحظ أن هذه الحكايات تكتسب في كل مكان مزايا جديدةوإضافات مختلفة، تطبعها بطابع ذلك المكان، وتضاف إليها بعض المؤثرات التي تلائم كلبلد فتصبح كأنها حدثت فيها، وتتعرض الحكاية للتحريف والتغير في الزمان والمكانوالشخصيات ولكن يبقى بناؤها الأصلي وهدفها وجوهرها باقياً من القصصالشعبية.

وتتسم الحكاية الشعبية بالمرونة والحرية ومسايرة العقولوالأمزجة والمواقف، وتتميز كذلك بالعراقة، والأصالة، والصدق فكثيراً ما ترتكز القصةالشعبية على أساس من الحقيقة تبدأ منه، وعلى الرغم من ذلك نجد أنه ليس لها مؤلف معروف، وقد يستخدم فيها الرموز في التعليم غير **مباشر.**[1]

والهدف من الحكاياتالشعبية تأصيل القيم والعلاقات الإجماعية، وكل حكاية تنطوي على معنى أو نمط سلوكيتريد له أن يتحقق أو تريد منه عالم الحكاية الشعبية فيعموميته.. والتي توظفه الجماعة الشعبية كشكل من

---

(١) (نبيلة إبراهيم: لغة القص في التراث العربى القديم (مقال ـ مجلة فصول ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ـ مارس ص ١٩)

أشكال التعبير الأدبي الشعبي لتنقلتراثها الإجماعي والكوني والأخلاقي والثقافي للأجيال، ومن ثم تأتي أهمية الاهتمام بالحكاياتالشعبية بالنسبة للأطفال لإكسابهم الإحساس القوي بالانتماء الثقافي لجماعتهمالشعبية.

فعند الشعبيات قبل أن تخلد الأسرة إلى النوم ، وفي وقت كان فيه البيت هو المدرسة الوحيدة التي يتخرج منها الإنسان، كانتالحكاية الشعبية بطريق غير مباشر إحدى وسائل التلقين وتوصيل المعلومات بهدف توجيه النشء وتأصيل المبادئ والأعراف وتفتيق الذهن وتوسيع الخيال .

اشكال الحكاية الشعبية

وتصف الحكاية الشعبية أحداثا معينة وعادات وتقاليد أشخاص معينين في قطاع مكاني محدود وفترة زمنية معروفة، ولكن بأسلوب فني يعتمد على السرد واستشارة خيال السامعين وأحاسيسهم وهم ينصتون للراوي وهو يقص صراع البطل ضد أعداء قومه، ويكبرون في نفوسهم تواضعه حينما يعود منتصراً ، ويبحثون مع البطل المحب ، وهو يغالب العقبات التي تحول بينه وبين الحصول على اللؤلؤة المجهولة التي تطلبها حبيبته، ويتعاطفون في حنان مع البحار الذي سقط من سفينته ليصارع البحر والموج ، أو تاجر اللؤلؤ حين يفقد لؤلؤه الذي جمعه عندما يسقط منه في البحر ، ولكنه لا ييأس ، والغواص الفقير حين تضيع اللؤلؤة الوحيدة التي رزقه الله بها ، يحزن ويسأل الله العوض ، حتى يصطاد سمكه لطعامه فيجد في جوفها لؤلؤة كبيرة .

ومن الحكايات الشعبية أيضاً ما يروى عن أهوال الصحراء ووفاء

الحيوان وممارسات الإنسان مع الطبيعة والصيد والفروسية وغيرها .

وكما يتغنى "النهام" بأغانيه للرفاق يحكي الغواص "السوالف" في مناطق الخليج قديماً والأحداث التي مر بها وسمعها وكانت من واقع الحياة ، أو يتبادل البحارة "حكايات" تناقلوها عن الأجداد ، يمتزج فيها الخيال بالحقيقة والوهم بالواقع ، والأسطورة بأحداث الحياة ، منها ما يحمل قيماً أخلاقية ومنها ما يؤكد الإيمان الديني والمعتقد ، والبعض منها ساخر، والبعض الآخر يهدف إلى حكمة ويسجل بالرمز تجربة إنسانية ، وإن كانت أحياناً ترد على لسان الحيوان أو الطير، ومن الحكايات ما يقدم جوانب من التاريخ لم تكن معروفه ، أو غفل التاريخ المسجل عن ذكرها، وتروى أحداث أبطال من صنع الخيال الشعبي ، فالحكايات الشعبية لأي مجتمع هي سجل متنوع الصفحات لقصة الشعب نفسه، صاغ فيها الشعب جيلاً بعد جيل ، أحداث حياته وتطلعات مستقبله ، يصف الواقع في أسلوب روائي يمزج الواقع، يضفي من فيض خياله، وتصورات أوهامه أوصافاً أسطورية على قصص البطولة ، أو حوادث المغامرات.[١]

إذن الحكايةالشعبية هي حكاية لنسج حقيقة ما وليست بنية استعارية دالة على قيمة بل دالةعلى حدث هام .ومن هنا تنوعت أشكالها إلى:

١ـ الأسطورة:

الأسطورة عبارة عن "ما لا علاقة له بالواقع" أو بعبارة آخرى ما

---

(١) جي. سي. كوبر، حكايات الخوارق، ترجمة: كمال الدين حسين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ص١٤،ص١٧

لاوجود له في الواقع.

ترتبط كلمة (الأسطورة) دائماً ببداية الإنسانية أو بدائية البشر حيث كانوا يمارسون السحر ويؤدون طقوسهم الدينية التى كانت ـ في ظنهم ـ سعياً فكرياً لتفسير ظواهر الطبيعة..

ونلاحظ أن الأسطورة ارتبطت أساساً بالعبادة وطقوسها.. كما أن طائفة من رجال الدين استطاعت أن توهم الناس بإنها على اتصال بكائنات روحية.. ومن ثم وجد السحر.. وأثار ذلك الرغبة في المعرفة..

وقد تكون الأسطورة متعلقة بالأبطال الدين تحدوا السحرة وانتظروا عليهم كما ترى في أساطير الأغريق والمصريين والهنود..

وهناك نوع آخر من الأسطورة وهى الأسطورة التاريخية.. فهى وإن اشتملت على الخوارق من ناحية.. تجعل بطلها مزيجاً من الاله والإنسان وحينما تروى فانها تستند إلى التاريخ لكنها تبالغ في الأحداث..

وقد لخص توماس بولفنيس الأسطورة في كتابه (ميتولوجية اليونان وروما) بقوله:

الأساطير أنواع: الأولى دينية مأخوذة من الكتاب المقدس مع الأغانى فإنها غيرت وحرفت ومن ثم كان هرقل اسما آخر لشمشون..

والثانية تاريخية تحكى عن أعلام الأساطير الذين عاشوا فعلاً وحققوا أعمالاً عظيمة وأضاف لهم خيال الرواة والشعراء الكثير.

والثالثة رمزية تعتمد على المجاز كأن نقول عن (ساتورن) يلتهم أولاده

تختلط هذه الحكايات بحكايات الحيوان والجان والسحر. [(١)]

كلمة أسطورة استخدمت لتدل على كل شيء يناقض الواقع. وقد استخدمت في العربية عن أساطير الأولين أى قصص الأقدمين، ومن ثم اختلطت عند الناس مع كلمة خرافة فأصبحتا بمعنى واحد.

والأسطورة تعرف بأنها قصص الأرباب والأبطال، أو الحكاية التى تختص بالآلهة وأفعالهم ومغامرتهم من حيث مولدهم وموتهمة وحبهم وبغضهم، وهى روايات خيالية من أجل تفير طبيعة الكون ومصير الإنسان وأصول العادات والعقائد وأسماء الأماكن المقدسة والأفراد البارزين. ومن الأساطير ما يصف الطقوس والشعائر التى صحبت الإنسان في علاقته بالآلهة ومن ثم ترتبط بالمناسك والشعائر. ومع أنها وليدة الخيال، فأنها لا تخلو من منطق معين أو فلسفة أولية تطور عنها العلم والفلسفة فيما بعد.

والأسطورة هى رواية خرافية وهمية ذات منزلة فكرية وروحية ضئيلة.[(٢)]

ويقسم العلماء الساطير إلى أنواع منها:

الأسطورة الكونية أو الطقوسية:

وهى أقدم أنواع الأساطير التى نتجت عن انشغال الإنسان بالكون وبالظواهر الكونية فعبر عن نوازعه الداخلية بلغة تصويرية تمثيلية لكى تهدأ نفسه ويتحدد مفهومه بالنسبة للكون. ويمكن أن نضع أساطير الخلق التى

---

(١)أحمد كمال ذكى: الأساطير، المكتبة الثقافية ١٩٦٧. ص٣٢

(٢) محمد محمد الجوهرى: موسوعة التراث الشعبى العربى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية، ج٤ ص ٦٤

عرفتها شعوب العالم القديم تحت هذا النوع فهى أغلبها تصور الأرض والسماء ملتصقتين ثم انفصلتا، وان الشمس والقمر كانا زوجين وأنجبا أبناءهما النجوم. ومن ذلك أساطير الخلق البابلية والعبرية والمصرية القديمة.[1]

الأسطورة الحضارية:

وهى ترتبط بالمرحلة الحضارية للبشرية حيث انتقل الإنسان فيها إلى تفسير الظواهر من المستوى الحسى إلى المستوى المعنوى، مثل تفسيره للحياة بعد الموت وتعليله لنظام حياته وهكذا.

الأسطورة الرمزية:

وفيها ينظر الإنسان إلى الرمز بوصفه حقيقة في أنه يوظف الشخوص الأسطورية على نحو رمزى بدرجة ما. ومن أمثلة هذا النوع من الأساطير الأغريقية التى تقوم على صراع الآلهة الذين يرأسهم زيوس رب الرباب على جبل الألب، ومنها أسطورة منيرفا التى تظهر اعتداد الإنسان بنفسه وبفنه الجمالى.

أسطورة البطل المؤله(الخالد):

وهى تصور الإنسان الذى يحاول أن ينتزع من الآلهة ما لا يمكن وهو الخلود. ومن أمثلة هذه الأساطير أسطورة جلجامش او ملحمته المشهورة وهى من أقدم أساطير الشرق التى اكتشفت في أواخر القرن التاسع عشر.

(¹) (١)محمد محمد الجوهرى: موسوعة التراث الشعبى العربى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية، ج٤ ص ٦٤

أساطير الأخيار والأشرار:

وهى نتاج مرحلة متطورة من التفكير بعد ظهور الأديان السماوية وفيها بدأ الإنسان في تجسيد إنسان واقعى يمثل الخير بحيث يصبح نموذجاً يحتدى به في حياته، وإن كان البعض لا يقبلون أن يكون هذا النوع بين الأساطير.

الأسطورة تحكى ببساطة أعمال كائنات خارقة كيف برزت إلى الوجود حقيقة واقعة .. قد تكون كل الحقيقة أو كل الواقع مثل الكون أو العالم .. وقد تكون جانباً من الحقيقة مثل جزيرة من الجزر أو فصيلة من النبات أو ضرب من السلوك الانسانى أو منظمة اجتماعية .. والأسطورة بهذا المعنى قصة "وجود ما" فهى تروى كيف نشأ هذا الشيئ أو ذاك. وهى ترتبط بالواقع في أولياته وأبطالها كائنات خارقة، يعرفون بما حققوا في عصور التكوين.(١)

والأسطورة تختلف عن الحكاية الشعبية في أنه لا يحمل في أعطافه القداسة التى لا تقترن بالأسطورة ومن اليسير على كل إمرئ أن يسرد أو يردد أو حتى ينشد حكاية شعبية. بيد أن التخصص في حكاية الأسطورة يعنى الأرتباط بقداستها والخروج من اطاره الزمنى إلى اطارها، وكثيراً ما يكون المتخصصون في تمثيل الأساطير طائفة من العرافين والسحرة القادرين على تطويع الكائنات غير المنظورة والقوى الخفية.

ولعل الجسر الذى يصل بين الأساطير والحكايات الشعبية هو تلك

---

(١) عبد الحميد يونس: الحكاية الشعبية، دار الكتاب العربى ١٩٦٨ ،ص٢٠

الملاحم التى تحكى وقائع الأبطال في توحيد عناصر مجتمع من المجتمعات أو الانتصار على طائفة من الأعداء أو اقتحام العدد العديد من الأهوال والعقبات .. ان ابطال الملاحم لهم قدرات خارقة ولكنهم كائنات انسانية .. قد تعاونهم الآلهة واشباه الآلهة ولكنهم يظلون من البشر.. ومن أشهر أساطير مصر القديمة أسطورة اوزيريس.[١]

٢ـ السير الشعبية والملاحم:

تعتبر السيرة الشعبية.. إلى جانب كل ما يدخل تحت الموروث الشعبى .. من مصادر أدب الأطفال.. وبالرغم من أن السيرة الشعبية التى وصلت إلينا قليلة العدد.. إلا أن الكتاب قد أقبلوا عليها يقدمونها في أشكال مختلفة من التبسيط والتيسير والتخليص.. وكان من أهم الكتاب الذين عنوا بالسيرة الشعبية للكبار والصغار وللناشئة: مُحَمَّد سعيد العريان ـ مُحَمَّد أحمد برانق ـ عباس خضر ـ كامل كيلانى ـ فاروق خورشيد وغيرهم..

ونلاحظ أن السيرة الشعبية باعتبارها أدباً شعبياً يمكن أن يكون لها عدة وظائف أهمها:

١ـ وظيفة ثقافية.. فالادب الشعبى ليس مجرد تسلية أو متعة أو ترفية.. ولكنه زاخر بالمعارف العامه التى يحصلها الطفل من الاطار الإجتماعى الذى يحيط بهذا الأدب مثل المواقيت وأسماء الشهور والأماكن والمناخ وغيرها..

٢ـ وظيفة جماعية أو قومية.. وهى الوظيفة التى تحافظ على التراث

(١) عبد الحميد يونس: الحكاية الشعبية، دار الكتاب العربى ١٩٦٨ ،ص٢

الجماعى من ناحية وعلى مزاياها وأمجادها من ناحية أخرى.. وهذه الوظيفة تقوم على ركيزتين أساسيتين هما:

أ. مرحلة التطور للبيئة والمجتمع منذ بدأت السيرة من البداوة إلى الحضارة.

ب ـ البيئة أى أبعاد الوطن جغرافيا.. ونوعية هذه البيئة الاجتماعية..

٣ـ **وظيفة نفعية..** حيث يرتبط الأدب الشعبى بمنفعة الإنسان وثروته أكثر مما يرتبط بتحقيق القيم الجمالية أو التسلية أو تزجية الفراغ.. ولذا فهو يقدم معانى عملية وقيما تربوية مختلفة.

٤. **وظيفة الشعور بالذات..** الفردى والجماعى.. وهذه الوظيفة تبدو في حكمة الشعب المبثوثة في أمثاله وملاحمه الكبرى التى تحكى سير الفرسان والأبطال.

٥ـ **وظيفة تفسير الظواهر..**بالمحافظة على الأصالة والقيم القديمة.. ويرى بعض العلماء أن السيرة الشعبية هى أهم الأشكال التى تصلح للطفل وهى تعد الحلقة الكبرى في التراث الأدبى الشعبى.. ويرون أنها بمضامينها ومحاورها خط مشترك بين العرب.. وجميعها تستهدف تثبيت القيم الإنسانية العليا بالإضافة إلى الترفية والتعليم..

يمكن إن يتعامل الكاتب مع السيرة الشعبية في إطار كثير من العناصر أهمها:

١ـ أن السيرة الشعبية منبع خصب للخيال..

٢. أنها تتميز باحتضان القيم الانسانية والصراع بين الخير والشر وانتصار الخير.

٣. أنها تقدم نماذج البطولة العربية.. تلك البطولة التى تعتمد على الشجاعة والأقدام وترفض التواكل والفشل والتقاعس عن العمل القومى المنشود.

٤. أنها تقدم مواقف يمكن أن تتكرر وتوجد في أى عصر.. بإعتبار السيرة.. هى سيرة نماذج إنسانية في جميع أحوالها وتقلباتها ..

٥. أنها تقدم الأصالة العربية .. تلك السمة التى ينبغى أن نجسدها ونحييها من جديد وأن تتوحد في وجداننا بما تبقى من جمال الماضى.. وروعته..

٦. أنها تقدم الدراما بما فيها من عناصر الحكى والتشويق والحكمة والمتعة جميعا.. وكلها تدخل في ذكاء وجدا ن الصغير وعقله.

٧. أنها تقدم والثقافة والمعرفة بكل آفاقها وعناصرها.

٨. أنها تعطى أمثلة كريمة يستعين بها الصغير في مواجهة الصعاب والمواقف المعقدة.. بفكر مفتوح وقلب لا يتقهقر..

٩. أنها تجسم الرغبة اللحة في تحرير النفس والجماعة من أى قيود أو حصار أو ضغوط.

١٠. أنها تجسد حاجة المجتمع إلى البطل الشعبى في كل العصور حيث يعطى البطل البعد الإجتماعى والإنسانى والفنى لأشهر الأحداث التاريخية

التى يمكن أن تحدث في أى عصر..[1]

٣ـ حكاية الحيوان:

من أقدم ما عرف من حكايات ، ويقوم الحيوان فيها بالدور الرئيسى.وهى حكاية قصيرة شارحة أو مفسرة ـمن حيث جوهرها ـ لطبائع الحيوان وهيئته . من شواهدها المشهورة تلك التى تفسر السبب في أن الدب غير مذنب ، حيث تقول أنه أضاع ذنبه،ومنها حكاية عصفور الجنة الصغير ذى اللون الأحمر في صدره المعروف بأسم "طائر النار" لأنه هو الذى جلب النار من السماء لخير البشرية.

ويرى العلماء أن بعض حكايات الحيوان كتلك التى تتكلم عن خلود الحيوان (الحياة على سبيل المثال) قد تنمو وتصبح أساطير كاملة التكوين ، بل يمكن الزعم أنها تطورت لتصبح أصل الحكايات التى تدور حول الآلهة .

ومما يميز حكاية الحيوان عن الخرافة ـ وهى في جوهرها حكاية حيوان ترمى إلى إظهار غرض اخرقى او موعظة إجتماعية ـ أنه تخلو من التعاليم الأخلاقية.

حيث يقوم الحيوان فيها بالدور الرئيسى وهو امتداد الأسطورة بصفة عامه، والأسطورة والحيوان بصفة خاصة، ويستوعب الخرافة وأنواع الحيوان وتكمن وظيفة هذه الحكايات في تفسير الظواهر المتعلقة بعالم الحيوان كاختلاف أشكالها وأحجامها وألوانها وصفاتها واستغلال هذا العالم في

([1]) (أحمد سويلم: دراسات في أدب الأطفال، مجموعة من الباحثين، إتحاد كتاب مصر ٢٠٠٦، ص٢١)

تفسير ظواهر طبيعية واجتماعية لا علاقة لها بالحيوان أى أن الحيوان يصبح وسيلة تفسر واقعاً بعيداً عنه، وفي هذه الحكايات أيضا يكتسب الحيوان كثيراً من الصفات الإنسانية كالمنطق واللغة أو السلوكيات، ونلاحظ ان حكايات الحيوان قصيرة بالقياس إلى غيرها وعناصرها قليلة يمكن أن يضم بعضها إلى بعض فتظهر في صورة متواصلة ذات حلقات والأمثلة على ذلك كثير منها كتاب "كليلة ودمنة" الذى يقتصر على البهائم والطير وبعض قصص الليالى "الف ليلة وليلة".[١]

٤- حكايات الخوارق "حكايات الجان"

تعتبر حكايات الخوارق (الجنيات) من أفضل ماتم روايته من حكايات أو قصص في العالم، فهى تعبر عن الوحدة المذهلة للعالم، من خلال انتشارها واستمرارها، عبر الأجيال وفي كل مكان في العالم، ابدعتها العقلية الانسانية بشكل فطرى. الأمر الذى يفسر وجود الموروث الكبير من الخوارق في كل بلد من العالم.

وحكايات الخوارق (الجنيات) هى حكايات خيالية لأفعال ومخلوقات اسطورية، وعادة ما تكون موجهة للأطفال، والجان كائن خيالى صغير الحجم يظهر على هيئة آدميه، وعادة ما يصور بمهارته وقدرتة على الإيذاء باستخدام القوى السحرية.

اما كراب فقد عرفها بأنها "احدوثة، متواترة بالرواية الشفاهية منثورة، ولها قدر من القوام وأنها جادة في الغالب الأعم".

---

(١) (عبد الحميد يونس: نفس المرجع ص٢٩)

وهذه الأحدوثة، تتمركز حول "بطل او بطلة ويكون البطل فقيراً أو وحيداً في بداية الأحدوثة، وبعد سلسلة من المخاطر، وتلعب فيها "الخوارق" دوراً ملموساً، يستطيع البطل أن يصل إلى غرضة، فيعيش حياه سعيدة إلى النهاية.

اما ديرلاين فيقول عنها: إن الحكايات الخرافية تتفق جميعها في كونها بقايا معتقدات تصل في تاريخها إلى اقدم العصور، وتتاح لها الفرصة للظهور من خلال تلك التأليفات التى تصور مدركات حسيه..

والكائنات الخارقة هذه يمكن أن نعرفها "بأنها شخوص خيالية ترتبط بجنس من الكائنات الشعبية (حكايات الخوارق) وهى قد تكون من البشر (الساحرات) أو من دون البشر الجان، والعفاريت، والمردة، والأقزام، او من عالم الحيوان والطيور والنباتات، او من الجماد (الأدوات التى ترصد بأسم البطل أو البطلة) وتمتاز بقدراتها على الاتيان بأفعال تتجاوز قدرة البشر، أعمال خارقة وتنقسم هذه الشخصيات إلى شخصيات خيرة تساند البطل وترشدة في رحلتة لتحقيق أهدافه لخصال طيبة فيه، أو شخصيات شريرة،تعيق البطل عن تحقيق أهدافه.

ومكافأة البطل هنا يوظفها القاص غالباً لتحقيق هدفه من الحكاية وبما تحمله من رموز بوصفها خطاباً ثقافياً تحرص الجماعات الشعبية على تواترة بين الأجيال، ليقدم لهم المعرفة والحكمة، ونموذج السلوك المقبول اجتماعياً، المتمثل لثقافة الجماعة المتمسك بمعتقداتها.

وتتم مكافأة البطل بواسطة مساعدة هذه الكائنات الخارقة، بما لها من

قدرات تتجاوز حدود الإنسان والعقل في كثير من الاحيان.

وهذه الكائنات أو الشخوص لاتوجد إلا في هذا النوع من الحكايات ومن ضمنها جنس الجنيات. لذلك يتم تسميتها بحكايات الجان.

إن ما يميز حكايات الخوارق خاصة والحكايات الشعبية عامه أو أشكال الحكى الشعبى من أساطير وسير وملاحم وحكايات. وهو الأستخدام العام للمجاز والرمز..(١)

٥- حكايات الشطار:

وتسمى احياناص حكايات اللص الشريف وتكثر في "الف ليلة وليلة" مثل شخصية أحمد الدنف الذى استطاع أن يحفر اسم في ذاكرة التاريخ ومخيلة العامه. وظاهرة الشطار بملامح وصفات متميزة وتقاليد كغيرهم من أبناء الطوائف والمهن، وتاريخ هذه الطائفة من الشطار لاتخرج عن القاعدة الرئيسية لمعظم الحكايات الشعبية وهى اختيار قدرة البطل على القيام بعمل خارق أو التخلص من مأزق أو العثور على شيء نفيس دونه الأهوال.

٦- الحكاية المرحة:

وتغلب على هذه الحكايات المفارقات وتتسم بالغباء أو البلادة أو الخدعة وهى خالية من التعقيد وتعرف في الحياه العربية بالنوادر مثل نوادر هناك ظرفاء والبخلاء والمغفلين والسكارى كما أن هناك نوادر جحا ونوادر

---

(١) جى. سى. كوبر، حكايات الخوارق، ترجمة: كمال الدين حسين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ص١٤،ص١٧.

أشعب التى تجمع بين الذكاء والغباء والحكمة، وتتسم هذه النوادر بالإيجاز ويحفل التاريخ العربى بعدد كبير من هذه النوادر تمثل الحكمة العربية وسلوكيات البشر والخروج من المأذق بالحيلة والتفكير.

٧ـ الحكاية الإجتماعية:ـ

تعكس هذه الحكاية النقد غير المباشر لأخلاقيات الطبقة الراقية وتصور ضروب السلوك المقررة على الرجال والنساء مثل ثياب العاشق أو عطره أو زينتة، ومن ثم فإن عاطفة الحب هى السائدة في هذه الحكايات وهناك بعد آخر لهذه الحكاية تتعلق بالنقد الجتماعى أى أنها ترسم نماذج بشرية تدل على طبقة او حرفة وتعبر الأحداث عن نزعة نقدية بالطبقة البرجوازية السائدة في المجتمع وقد صورت الليالى طائفة التجار التى تمثل الطبقة الموسرة التى تتفوق في ترااثها على الحكام أنفسهم، كما تعاطفت الحكاية الإجتماعية مع أصحاب الحرف والمهن لأنهم يمثلون الوجه المقابل للطبقة الثرية أو طبقة الأثرياء.

٨ـ حكايات الألغاز:ـ

قد نجد تداخلاً بين الحكاية والمثل واللغز في الأدب الشعبى، واللغز كما هو معروف عبارة عن مسئلة تطلب حلاً لما تنطوى عليه من غموض، وليس اللغز مجرد أحجيه لفظية تطرح للتسلية أمام جمع من السحار ولكنه أهم من ذلك بكثير، وقد حفلت الحكايات الشعبية بالألغاز منذ فجر التاريخ، وتلتقى في هذه الألغاز وظائف شتى منها ما هو شارح للظواهر والمعضلات كالأسطورة ومنها ما هو تعليمى يعطى معلومة او حقيقة أو

معرفة من المعارف ومنها

ما يدفع إلى الرياضة الذهنية، وحكايات الألغاز من أنجح الساليب التى لجأت إليها الشعوب تعبيراً عن اعتراضها أو احتجاجها على الظلم والظالمين. [1]

حكايات الأمهات:

الحكايات التى تحكيها الأمهات، وتعيدها على الأطفال، تثيرى تلك الأعماق الروحانية والوجدانية لديهم، تلك الأعماق التى تنبع منها المثل والمانى، إن الملايين من الأرواح البشرية، تتشرب عناصر هذه الحكايات، خلال مراحل تكوينها وتساعد على خلق الاتجهات التى تؤثر على شخصياتهم بشكل عام. [2]

ومن هذه الاتجاهات ما تؤكد عليه هذه الحكايات من خلال أبطالها، بأنه لا مفر من الكفاح وبذلك الجهد لحل مشاكل الحياه، فعادة ما تضع الطفل في مواجهة المشكلات الأساسية للإنسان، الخوف من الموت، رهبه الحياه، والخوف من الشيخوخة والعجز، والخوف من المجهول، ومن الانفصال عن الأبويين أو احداهما، خاصة الأم، كل هذه المخاوف تقدمها الحكايات للطفل وتضع له الحلول فيتجاوزها ويتجنبها، وتزرع هذه الحلول داخلة الأمل في حياه سعيدة.

---

(1) (عبد الحميد يونس ص٢٩)

(2) جى. سى. كوبر، حكايات الخوارق، ترجمة: كمال الدين حسين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ص٢٩.

فهذه القصص تفتح آفاقا جديدة لخيال الطفل، وبناؤها يقدم للطفل صورة تدمجها في أحلام اليقظة، وتساعد على توجيه حياته بطريقة أفضل.[1]

لكل هذا عاشت هذه الحكايات، وما زالت تعيش وسط عالم التكنولوجيا المتقدمه ووسائط التصالات الرقمية، وعالم العولمة، ذلك للدور المؤثر الذى تلعبه في النمو العقلى للطفل وتحيط روحه ووجدانه بإطار سحرى ضرورى مهم، لمقاومه التأثير المتزايد والقوى للمجتمعات التقنية، إن إحياء الاساليب العديدة للرواية أو التجسيد الفنى لهذه الحكايات، يثير قوى الاتصالات، والمشاعر الروحانية والوجدانية، لدى الأطفال وهذا واحد من أهم اساليب نمو التركيز لدى الأطفال عير المستقرين انفعالياً.

وتحقق هذه الحكايات تواصلها واتباطها بالأطفال، عندما يطلبون أن تحكى لهم هذه الحكايات مرات ومرات، وتتحول شخصياتها إلى اصدقاء حميمين للأطفال، تماماً مثل الدمية التى تتفاعل معها الطفلة كأم، وهى تعرف أن هذه الدميه لا حياه لها، ولكنها من خلال قوى التخيل التى تسمو بها عن الواقع تكسبها الحياه، ويحدث ذلك حتى مع تلك الشخصيات التى يدعى البعض أنها مفزعة وتثير الخوف.[2]

إن الطفل يستوعب عناصر الحكاية بوصفها كلا متسقاً فالحدث

([1]) جى. سى. كوبر، حكايات الخوارق، ترجمة: كمال الدين حسين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ص٢٩

([2]) جى. سى. كوبر، حكايات الخوارق، ترجمة: كمال الدين حسين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ص٣٠.

المفرح مثله مثل الحدث المفزع، يأتى تأثيرة فقط في النهاية عندما يؤدى إلى نجاح البطل وتحقيق الهدف المنشود، لذلك لايخاف الطفل هذه العناصر ولا يخاف تلك الشخوص الخارقة التى حققت العدالة، وساعدت البطل، وكيف يخافها وهى تكافئ البطل الذى توحد به، وتجازى المخطئ الذى رفضة الطفل أصلاً.

والحكايات التى يسمعها الطفل قبل النوم والتى تدخل به إلى عالم المعرفة المجهول بالنسبة له من عالم الكبار، حتى لو كانت الحلول التى تقدمها يتم على يد جنيات ساحرات طيبات.

كما ان هذه الحكايات تساعد الطفل على اكتساب العديد من قواعد السلوك والأخلاق على المستوى الشعورى، بتحويلها المعانى لكل من الشعور واللاشعور والتوحد مع مثل هذه الحكايات يساعد الطفل على النمو السوى، ويخفف تلقائياً من الضغوط التى تأتى بها المشاكل التى لم تحل بعد فهذه الحكايات تشير بثبات إلى الطريق الذى يقود الفرد إلى المستقبل أفضل، وتركز على عمليات التحول، أكثر مما تصف التفاصيل المرتبطة بالسعادة التى تصل إليها البطل.

وعند تحليل حكايات الخوارق نجد أن من اسباب تفضيل الحكايات الشعبية وحكايات الجدات مع الأطفال، يرجع إلى أن لها بناء شبه ثابت ومألوف لهم، بسماع الطفل لهذه الحكايات، يصبح أكثر ألفة ووعياً ببنائها وتطورها، وهذا الوعى مهم لتعليم القراءة والكتابة، فهو يساعد على تنمية مهارات الأستماع والتوقع، كما يزيد من الاهتمام ةالثقة بالنفس، كما

يمكن الطفل من حكى حكاياته أو التعبير عنها عن طريق الفن أو الكتابة وجميعها تنمى قدرته على القراءة والكتابة.

الراوى ذو المشاعر السليمة، سيكون قادراً على خلق التوازن المطلوب لبنية هذه الحكايات، فيصف المواقف المرحه، كما يصف القسوة، كما يجب أن تقدم هذه الحكايات في جو مناسب، يساعد عل إظهار الحقائق التى تتضمنها، وهكذا يمكن تجنب أى مشاعر ضارة عنده وصف القسوة أو العقاب الذى قد يرد واحده من هذه الحكايات.[١]

ويحاول العالم إحياء فن الحكى الشعبى وما يتبعه من فن رواية القصة من أجل مجابهه الواقع المادى، بكل صراعاته والآمه، يزرع أمل رومانسى، وحلم عاطفي بنقاء الأرواح لتجاوز كل هذه الصراعات والألام،متفائل بغد مشرق.

وتدور أحداث هذه الحكاية دائماً في بلاد بعيدة جداً عن تصور البشر والواقع، حيث تقع أحداث خارقة لا يحدها منطق كما أن أبطال هذة الحكايات عبارة عن شخصيات لا أسماء لها وإنما هى نماذج كالملك والملكة والوزير والرجل العجوز وأمنا العجوز وهكذا.. وقد يطلق على الأبطال أسماء تتسم بالتعميم مثل الشاطر حسن، والشاطر محمد إلى آخره.. وهناك اختلاف بين الحكاية الشعبية التى تدور في إقليم أو في منطقة معينة بأسلوب يختلف عنه في إقليم آخر، أما حكايات الجان فهى تدور بعيداً

---

(١) جى. سى. كوبر، حكايات الخوارق، ترجمة: كمال الدين حسين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ص٣١.

عن أى منطقة واقعية والجان كائن خارق غير منظور في العادة وهو إما خير أو شرير ويعيش على الأرض وبينه وبين الإنسان علاقات مختلفة وهذه الكائنات يعتقد الناس بوجودها في العالم القديم، وهى قادرة على التشكيل والأستخفاء وقد تكون صورة مارد يطاول الجبال أو قزم يصغر عن الأطفال ويعيش عادة تحت الأرض أو عند سفح جبل أو بين كومة من الصخور ويتخذ ألواناً مختلفة في ملابسه وأشكاله

واذا كان الجان يعيش في قصور خرافية مترفة موشاه بالذهب والفضة والجواهر حافلة بأشهى الأطعمة وأطيبها وباللهو والغناء والموسيقى، فإن العفاريت تعيش منفردة متوحدة مرتبطة بمكان معين وتتفاوت في الطبع والسلوك. مثل السمندل الذى يعيش في النار والجنية التى تسكن البحر. وحكايات الجان مشهورة في كل العالم لها دخلت تحت مظلة الأدب الشعبى.[١]

الحكاية الشعبية وفعل الحكى

يستمد الحكى أو رواية القصة أهميتة من جانبين الأول من فعل الحكى ذاته ودلالالته وشخصيتة الحاكى، والثانى من محتوى وهدف الخطاب الثقافي المحملة به الحكايات أو القصص.

أما بالنسبة لفعل الحكى أو الرواية فهو الفعل الذى يتحرك في الزمن بأبعادة الثلاث الماضى والحاضر والمستقبل في لحظة آنية واحدة، فإذا كانت الحياة حركة بين الماضى والحاضر والمستقبل، فإن القصص تستمد

(١) أدب الأطفال، مجموعة من الباحثين، إتحاد كتاب مصر ٢٠٠٦، ص٢١)

من الماضى ومن الحاضر من أجل المستقبل، أما الماضى فقد كان يمد الإنسان بالنماذج البطولية وبالتجارب الإنسانية الرائعة وأما الحاضر فقد كان يمده بواقع الحياة وما فيها من تفاعلات كامنة تحت السطح، حتى إذا جاء المستقبل، فإنه يجىء محملاً برصيد هائل من التأمل "الماضى" والقلق" الحاضر، فيحل هذا كله إلى واقع آخر[1] . بمعنى آخر أن فعل الحكى يختار من الماضى ما يزيح قلق الواقع لخلق مستقبل ملئ بالأمل، والاستعداد له.

فالماضى هو الخبرة الكاملة التى تستحق التأمل وإعادة التأويل والتبؤ من أجل إستخلاص دروس ومعارف يختار منها الراوى ما يناسب الموقف الأنى "الحاضر" الذى يبعث على القلق، يختار الراوى من الماضى ما يحاول به ازاحه هذا القلق وخفضة من أجل أن يستعد الإنسان لمستقبل لا قلق فيه. فإن كان القلق في الحاضر بسبب الرزق، نكون في خبرات الرضى عن القناعة الدرس الذى يخفض من هذا القلق ويدفع الإنسان تجاه المستقبل راضياً قانعاً.

من جهة آخرى وان كان التعلم يتم عمومة من خلال التعرض للخبرات المختلفة والنماذج الإيجابية للإنسان في مواجهته للحياة وتنوعها، فإن القص أو الحكى يقدم للإنسان كل من الخبرات الإنسانية التى تساعد على تعلمه وأيضاً تلك النماذج التى يتوحد معها ويتمثلها، من خلال تفوقها في مجال الخبرة الماضوية المشابهه للخبرة الحياتية التى تقلقه، وهذا ما تحققه القصص أو الحكايات في إجمالها، وخاصة مع الطفل، فالقصة تلعب

(1) (نبيلة إبراهيم: لغة القص في التراث العربى القديم (مقال . مجلة الفصول . الهيئة المصرية للكتاب،مارس ١٩٨٢، ص١١)

دوراً هاماً في إعداد الطفل لمواجهه الواقع من خلال تحقيق سيطرته على العالمين الخارجى والداخلى، من خلال ما تقدمه له من معارف وخبرات، فالقصة وكما سبق القول ليست وسيلة للتسلية وتزجية أوقات الفراغ وحسب، بل هى مصدر للمعرفة بالنسبة للطفل، " فالطفل يريد أن يعرف كى يكبر، وكى تتاح له السيطرة على ذاته والعالم.. وبذلك تقترن المعرفة بالنمو وتحقيق المشروع الوجودى للطفل" (١) ،

وكلما اقتربت القصة والحكى من الحياة بخبراتها ونماذجها كلما كانت أكثر صدقاً " فالقص عندما يكون بمثابة الأداء التمثيلى لحركة الحياة، فإنه عندئذ يكون فيه من الصدق والحقيقة بمقدار ما في الحياة وإذا كانت الحياة لا تثرى إلا بالتجارب التى تجعل الإنسان يعيد حساباته دائماً ابداً، مع متغيرات الحياة التى تدفعه لأن يعيش حياة التوازن واللاتوازن في أوضاع مختلفة (٢) . هنا تأتى أهمية فعل الحكى أو القص الذى يزود الإنسان بكل ما يحتاجة من زاد الخبرات والتجارب.

هناك أيضاً المناسبات القومية والشعبية والخاصة أحياناً التى ارتبطت بهذا الفعل أو ارتبط هذا الفعل بها، تلك المناسبات التى اكتسبت فعل الحكى أهمية بالنسبة للجماعة التى تحرص على ألا يفوتها المشاركة في هذا الفعل في تلك المناسبة. المر الذى انعكس بالضرورة على نظرة المجتمعات

---

(١) (مصطفي حجازى وآخرون: ثقافة الطفل العربى (المجلس القومى للثقافة الرباط ١٩٩٠ ص١٦٠)

(٢) (نبيلة إبراهيم: لغة القص في التراث العربى القديم (مقال ـ مجلة الفصول ـ الهيئة المصرية للكتاب،مارس ١٩٨٢، ص١٦)

للمشاركة في هذه الأفعال والمناسبات. سواء أكانت تتم خارج المنزل أو داخلة فقد كان لبعض المجتمعات والعائلات مواسم ثابتة من السنة لرواية القصة تبدأ في الربيع أو بعد الحصاد، وغالباً ما كانت تتم الرواية في المساء، لأنهم كانوا يعتقدون أنه فالاً سيئاً لو رويت القصة في النهار" (١)

وفي رأى الباحث أن المساء هنا كوقت مناسب لرواية القصة يحمل أكثر من دلاله فهو وقت الراحة بعد العناء من الفعل.. وبذلك يكون الذهن صافي خالى لتلقى هذا الدرس، ويساعد على ذلك اختفاء عوامل التشتت والضوضاء التى قد يكون النهار ملئ بها، وأخيراً فرواية القصة في المساء تجعل من الخبرات المروية أخر ما يتلقاه ويتعرف عليه الطفل قبل النوم فيكون أخر ما يتلقاه الدرس المعرفي أو الأخلاقى وكانت رواية القصة أو أداء فعل الحكى داخل المنزل من أكثر الخبرات انتشاراً في العالم أجمع، ففي معظم المجتمعات وعندنا في مصر كانت هناك الجدة الحكاءه.. وفي بعض المجتمعات كانت الأسر الثرية تكلف شخص من الخدم وظيفته الأساسية رواية القصة للكبار والصغار، وفي بعض الأحيان راوى لكل جماعة" (٢).

فالمنزل هو أكثر الأماكن توفيراً للشعور بالأمان والثقة والأجتماعية وفي بعض المدن "كانت رواية القصص تتم في المنازل وليس بالضرورى في منزل الراوى، وكانت هذه الجلسات تجمع العديد من أطفال المدينة وغالباً ما كان ذلك يتم في المناسبات القومية، وكان الأطفال يحضرون معهم في

(١) The world of story telling: p. 72

(٢) The world of story telling: p. 70

مقابل ذلك حطب المدفئه، وماء كثير لصاحب المنزل. [1]

أما بشأن الراوى .. فيستمد فعل الحكى أهميتة من أهمية الراوى بالنسبة للجماعة، لذلك كان كبار السن من أصحاب الحكمة والمكانة هم الذين يقومون بهذا الفعل، أو من بين أصحاب الخبرات والمعارف والفطنة القادرين على جذب إنتباه مستمعيهم وتشويقهم، وتقديم الخبرات المتنوعة لهم. بقصد التأثير فيهم إيجابياً تجاه كل القيم والأعراف والتقاليد التى تتبناها الجماعة التى يسعون ليكونوا أفراداً بها.

"فدور القاص أو (الهو) الذى يقص متوارياً وراء الأحداث، والأفعال في أى نمط من القصص، فردياً كان أم جماعياً، تحكماً كلياً في شكل القص ولغته، وكل قاص يهدف متعمداً أو غير متعمداً أن يوصل للقارئ أو المستمع رؤية ما" [2] تتماشى مع الرؤيا الثقافية للمجتمعولا يصلح لهذا الدور بالضرورة إلا كبار السن أصحاب الخبرات ووجهات النظر والروئ تجاه الواقع والحياة. "فالقاص في القصص العربى هو ناقل تراثة، وناقل تجاربه، وتجارب الجماعة، وهو ينقل كل هذا إلى مستمع أو قارئ، وهو مدرك تماماً لوجود هذا المستمع بعد بوصفه مشاركاً أساسياً في عملية القص وعندما تكون العملية القصصية مشاركة فعلية بين طرفين، فإن القاص يعرف أن ما يحكيه يتعدى القص، إلى الإثارة وتحريك مكنون

---

(1) The world of story telling: p. 82

(2) (نبيلة إبراهيم: لغة القص في التراث العربى القديم (مقال . مجلة الفصول . الهيئة المصرية للكتاب،مارس ١٩٨٢، ص١٤)

المعارف الموسوعية لدى المستمع" (١)

أما من جهة الخطاب الثقافي الذى ينقله الراوى او الحكاء وهو ما يعرف بالحكاية أو القصة، فهى قديمة قدم الإنسان .. هى فن الأديان الأول.. ومن ثم لا غرو أن تكون هذه المؤسسة القصصية هى أقدم شكل من أشكال المعرفة الإنسانية قبل إختراع الكتابه وبعده" وأخالها تبقى كذلك بالمعنى الجمالى، ليس لأنها تخاطب العقل الكامن في داخل كل منا، بل لأنها بحكم طبيعتها المرنة استطاعت أن تطور نفسها، وأن تستوعب في إطارها والأكثر تشويقاً كل فنون القول والمعارف، والايديولوجيات" (٢)

فالحكاية أو القصة كانت وما تزال سبيل الإنسان إلى المعرفة التى تساعده على السيطرة على الظواهر والكائنات من حوله وبالتالى يتمكن من امتلاك العالم، وهى وسيلته أيضاً ليعبر عن أفكاره وأماله وأحلامه، لينقلها إلى الآخر، ليتكاتفا ويتشاركاً إنفعالياً وعاطفياً، وتتولد لديهما القوة التى تحيل الحلم إلى واقع، كما أنها كانت وسيلة لتوصيل خبراته الحياتية، بما تتضمنه من أحداث وأفعال، وقيم، ودروس، ليستفيد منها الجميع.

أهمية الحكى من الكبار

حكايات الجدات، قد تبدو في ظاهرها ـ بسيطة وساذجة .. كما أن تسميتها وتحديدها ضمن أنواع الحكايات الشعبية مسألة غير مستقرة،

---

(١) (نبيلة إبراهيم: لغة القص في التراث العربى القديم (مقال ـ مجلة الفصول ـ الهيئة المصرية للكتاب،مارس ١٩٨٢، ص٤)

(٢) (محمد رجب النجار: التراث القصصى في الأدب العربى (ذات السلاسل ـ الكويت ١٩٩٥ ص٤)

فلقد استخدم بعض دارسيها مصطلحات آخرى مثل: حكايات ما قبل النوم، او حكايات السيدات العجائز، وقد استخدم ريتشارد تشيز . وهو جامع فولكلور أمريكى . لمجموعة حكايات جمعها عنوان "حكايات الجد"،

وعلى أن الإهتمام بهذه الحكايات إنما يقع في إطار مجموعة من الأحاجى أو القصص الشعبى تشمل: "الحكايات الشعبية" و"الحكايات الخرافية"، و"حكايات البطولة" و"الأساطير". وهذه الحكايات على ما بينها من تشابه أو إختلاف، حكايات "تراكمية". وهو مصطلح أعنى به أنها تنشأ في إطار تاريخى وجغرافي محدد، ثم تتراكم صورها ووقائعها بإضافات الرواه وحذفهم وتعديلهم لأجزاء منها، وذلك في خلال التطور التاريخى والانتشار الجغرافي لها، مما يجعلها صوراً نابضة لحياة الشعوب وتاريخها الذى "لم يدون" إلا قله. وهى جميعاً مع وقوعها في صميم "الأدب الشعبى" قد اقتحمت عالم "الأدب الرسمى" شعراً وقصصاً وملاحم وروايات فأثرت فيه واضفت عليه حيوية خاصة وأثرته، بما يجعلها جديرة بالدرس والأهتمام.[١]

واذا كانت حكايات الجدات وثيقة الصلة بكل هذه الأنواع من الحكايات ومتداخلة معها، فإنها مع ذلك لم تحظ بما حظيت به تلك الأنواع في دراسة الدب الشعبى عندنا، والتى تلقى من اهتمام الجامعيين والدارسين أقل مما تلقاه نظائرها في الثقافات الآخرى المعاصرة.

واذا كانت الحكايات عند كل الشعوب قديمة عاشت وتعيش عصور

---

(١)(حكايات الجدات: مجلة المأثورات الشعبية، العدد الخامس عشر يوليو ١٩٨٩ ص١٩)

ازدهار وجمول مختلفة كما هو السأن مع كل مظاهر التراث الإنسانى الثقافي والحضارى .. فلقد كانت هناك حكايات خرافية وشعبية كثيرة خلال القرن السادس قبل الميلاد، شاعت وانتشرت في كثير من بلدان العالم القديم. ثم عاشت أكثرها هذه الحكايات عصر إزدهار آخر وذلك إبان الحروب الصليبية زو عالم الأدب الشعبى، وحيث التقت حكايات الشرق القديم بحكايات عربية وشرق أوسطية، ثم رحلت جميعا لتغزو عالم الأدب الشعبى الأوربى، ومن أقدم المجموعات التى ظهرت قبل عصر النهضة الأوربية مجموعة جمعها الشاعر الكشميرى سومادیو، ثم بالطبع مجموعة الف ليلة وليلة العربية، وفي القرن الثالث عشر الميلادى ظهرت في إيطاليا مجموعة "دى كاميرون" لبوكاشيو" (١٣١٣. ١٣٧٥م) ، ثم مجموعة "ثلاث عشرة ليلة ممتعة" (١٥٥٠ . ١٥٥٤م) لاسترابارولا الذى كان يعيش بالقرب من كريمونا، ثم مجموعة (بنتاميرونى) من خمسين حكاية لشاعر نابولى، جيام باتستا، وقد وصفت هذه الأخيرة بأنها فقط عامية، وانما "سوقية اللغة" أيضاً.(١)

وإذا كان القرن الثامن عشر في أوربا هو عصر "العقل والأستنارة" كما يقولون، فإنه أيضاً "عصر السحر والذوق المرهف" ولكنه على أى من الحالين لم يكن ليقبل الحكايات بهذا الشكل السابق، أو بالشكل الذى بدأ على يد رجال مثل برينتانو الذى كان مولعاً بالنكات والتلاعب اللفظى والتوريات الأدبية، إذ بدت حكاياته "فضفاضة للغاية وخالية من العناصر الفنية" لقد كان على الحكاية لتتلائم مع المزاج الأدبى لهذا العصر أن

---

(١) (مُحَمَّد أحمد حمدون: مجلة المأثورات الشعبية، العدد الخامس عشر يوليو ١٩٨٩ ص٢٢)

تكون: أولاً منطقية، وثانياً مليئة بالمغزى، وثالثاً ذات نظام سائد. ومن ثم انفصلت الحكايات ـ في جمعها وتناولها ـ إلى اتجاهين : أولهما يحتفظ بطابعه الشفوى المتداول على الألسنة في مصانع الأعمال اليدوية والمغازل، وفي الأمسيات.. والثانى ـ متفاعلاً مع الأول ـ يخضع للذوق الأدبى لهذا العصر وفيه تظهر

ولم يكن للعالم الجديد _ امريكا _ ما كان لأوربا من تراث شعبى ولكنها مع ذلك بدأت في القرن التاسع عشر تتجه نحو الجمع والدرس الفولكلوريا . وقبل ان ينتهى ذلك القرن ، وعلى التحديد في الفترة من ١٨٧٥ وحتى العشرينات من القرن الحالى كان الاتجاه السائد هو الاهتمام بالأغنية الفولكلوريا . ولكن حين تكونت جمعية الفولكلوريا الامريكى ١٨٨٨ وبدأ اعضاؤها ينشرون في صحيفة (الفولكلوريا الامريكى) ظهرت مجموعات من الحكايات على شكل مذاكرات . وأصدرت مجلدا من هذه المذكرات عام ١٨٩٤ تبعته مجلدات عديدة _ كل سنة تقريبا _ حتى بلغت الحكايات التى جمعت ونشرت الى عام ١٩٥٥ ، ستمائة حكاية .

وقد انصرف بعض جامعى الحكايات الامريكيون تحديد الطرق التى يجب عليهم اتباعها في جمع الحكايات وتدوينها ، وهناك دراسة بعنوان (حصاد الفولكلوريا) لكينيث س ...جولد شتاين تشتمل على توجيهات للجامعين ، مع بيان طريقة الملاحظة ووسائل نقل الروايات الشفويه .

ومع أن العالم العربى دخل مجال الاهتمام بالتراث الشعبى متأخراً عن

تلك المحاولات الأوربية والأمريكية التى أشرنا إلى اطراف منها، إلا أنه حاول ويحاول تعويض ما فاته بخطى حثيثة، إن واجه الموضوع أول في حذر وبية، على نحو ما سنذكر قريباً، فقد أصبحت دراسات الأدب الشعبى في مقررات الطلاب في بعض الجامعات والمعاهد التى خصصت له اقساماً تمنح درجات علمية عالية كالماجيستير والدكتوراه، كما توافد على دراسته عدد من الباحثين والمتخصصين، وانشئت في أكثر البلاد العربية مراكز الفنون الشعبية وصدرت عنها مجلات متخصصة،كما قامت بتنظيم مهرجانات وطنية تهدف جميعاً إلى الكشف عن تراثنا الأدبى والفنى والشعبى بصورة تكفي للقول بانه بدأ يأخذ مكانه، "في مجال النشاط العلمى والفنى المؤثر، وأننا نلاحق الزمن في الكشف عنه" منذ الخمسينيات الميلادية، ففي ١٩٥٦م انشئت لجنة للهجات الدارجة تابعة للمجلس الأعلى للفنون والآداب بالقاهرة أعقبها . في القاهرة أيضاً . مركز الفنون الشعبية، ثم مجلة رسمية للفنون الشعبية، كما انشئت مراكز مشابهة في سوريا والعراق، وصدرت عن العراق في نفس الفترة مجلات تتناول الترراث الشعبى فيه . وان كان قد سبقت فيه محاولة قيمة الحكايات الشعبية . وسرعان ما تجاوبت أصداء النهضة في دول شمالى أفريقية والسودان ثم مجموعة دول مجلس التعاون التى انشأت مركز التراث الشعبى لدول الخليج العربية[١].

(١)(حكايات الجدات: مجلة المأثورات الشعبية، العدد الخامس عشر يوليو ١٩٨٩ ص٢٥،٢٤)

دورالمرأة في الحكايات

لكن الذى يجب التنبيه اليه ونحن نجاوز هذه المرحلة التاريخية هو ان تقليلنا من الخوف على هذه المأثورات انما يصحبه تأكيد بالغ على اهمية دور المرأة العربية في هذة المرحلة . ان النساء في كل عصر وثقافة حاملات تقاليد ووالدات اعراف ، وقد واجهت وتواجه الحكايات التراكمية وحكايات الجدات مرحلة انتفال من الرواية الى التدوين ، ولا نظن _ وبحكم الثقافة والتقاليد العربية _ ان جيلا من جامعى ومصنفي الحكايات في العالم العربى ، سوف يحقق غايته في تصنيف وتحديد الانواع الادبية من حكايات القصصية وأسطورية وعالمية، وهو عمل الفولكلوريا ، وفقا لما ذكره أتلى مالم تكن المرأة عنصرا فاعلا وحيويا فيه ...... من الذى يستطيع ان يسمع ويدون ويسأل ويلاحظ ...... والراويات في كثير من الحالات لا يختلطن بالفولكلوريا من الرجال ؟

بل اننا لو نظرنا الى المجتمعات الغربية التى مرت بتلك المرحلة من الاهتمام والتدوين لوجدنا ان المرأة لم تتخل عن هذا الدور للرجل مع حريته في اللقاء والحركة والجمع والتصنيف ، لان الحكاية بالدرجة حكايتها وتريد ان تنقلها لأبنائها وبناتها . وان النظرة سريعة الى قائمة المشاركات في تلك الحركة لتبين عن مقصدنا دون مبالغة أو تهويل .

وفي امريكا لم يقل دور المرأة في جمع الحكايات وحفظها عن نظريتها الاوربية بل فاقتها ، فهيلين فلاندرز جمعت مجموعات كان لها اثرها حتى الثلاثينات الميلادية وضارعت اعمالها اعمال فرانسيس جيمس تشايلد

وارثر كايل ديفز بما فيها من غناية وقصصية ، وكذلك فعلت مارى كامبل في ولاية كنتاكى حيث جمعت كتابها (حكايات من بلد السحاب المشاءة) ، وكانت لها (اكتشافات مرموقة) كما يذهب في ترسترام كوفين الثالث ، الذى قدم لمجموعة بحوث الفو لكلورالامريكى . ومثلهما كانت اليزابيث جاردنر التى اهتمت بحكايات تلال شوهارى بولاية نيويورك ، ووروث ان موزيك التى اهتمت بحكايات ولايتى ميسورى وفرجينيا الغربية ، وربما كان المشهور العالمى الان دور هارييت بيتشر.[١]

(حكايات الجدات ودور المراة في الحفاظ عليها، مُحَمَّد أحمد حمدون، مجلة المأثورات الشعبية –،العددالخامسعشرص١٩،٢٩)

(١) (مُحَمَّد أحمد حمدون: مجلة المأثورات الشعبية، العدد الخامس عشر يوليو ١٩٨٩ ص٢٩)

الحكى الشعبى وتثقيف الطفل

الحكى الشعبى وإيجابيات الثقافة الشعبية

الثقافة إبداع إنسانى جمعى يميز كافة المجتمعات أو التجمعات الإنسانية، فلا يمكن لأى جماعة أو مجتمع أن يعيش أو يستمر وجوده، بدون كل تلك العناصر الثقافية التى تعمل على الحفاظ على حياته، واستمرارها عبر الزمن والأجيال، ومن منطلق اتفاق الجميع على صلاحيتها كدستور يتعلموا منه سبل الحياة واساليب الحفاظ على الجماعة وتماسكها وتطورها ، ذلك أن الثقافة وإن اختلفت تعريفاتها، إلا أنها في العموم "بأنها مجموعة القيم والعادات والتقاليد والأعراف ، التى يعيش وفقها جماعة من الناس أو مجتمع بشرى"[١]

ومن خلال إبداعها الجمعى والاتفاق عليها ثم تبنيها وتمثلها من كل أفراد الجماعة اكتسبت صفة الشعبية ، لذلك قامت الدراسات الانثروبولوجيا والفلكلورية لدراسة ثقافة الشعوبمن خلال مظاهرها كما يتمثلها الشعب في سلوكه وإبداعات باعتبار أن "كل إبداع أو تعبير وممارسة يعبر بها الشعب عن موقفه من الحياة وبمختلف وسائل التعبير من صوت بشرى باللغة أو غير بشرى بالموسيقى ، أو بالإشارة والإيماءة، بالحركة والتشكيل، بالنظم الاجتماعية وانماط سلوكه، بأدوات وطرائق

(١) ويكبيديا الموسوعة الحرة / ثقافة ١٠/٤/٢٠٠٩

العمل،بمعتقداته وتصوراته الفلسفية، يصاحب ذلك إيقاع خاص يتغير بتغير الظروف الطبيعية والاقتصادية والسياسية والتعليمية، إلى غير ذلك من معطيات تحوط وجوده وتؤثر في بنية وجوده الإنسانى" كل هذا يشكل الإطار المادى للثقافة.

فالثقافة الشعبية إذا ليست مجرد أفكار أو مجرد أحكام مجردة، بل تشمل أيضاً كل المنتج التعبيرى والحياتى الذى يعبر عنها ، كما يظهر في أنماط السلوك وأشكال الحياة التى يسلكها ويعيشها الإنسان ، بما تتضمنه من عادات وتقاليد ومعتقدات ونظم اجتماعية، تفسر أو تعلل أسباب وجوده هو أو ما يحوط بهذا الوجود ويتم التعبير عنه في لغة لفظية أو تشكيلية أو موسيقية او إبداعات واختراعات تيسر من سبل الحياة.

هذا التراث العظيم تبتدعه الجماعة الشعبية ، لا يمكن له الاستمرار إلا في وجود تراث سردى مواز من أشكال الحكى التى تسجل وتجمع وتتواتر عبر الأجيال حاملة رسالة التواصل الزمنى لهذا الأرث ، بين الأجيال التى تملك الحق في الحذف والإضافة لعناصر جديدة، بلا من عناصر فقدت قدرتها على تلبية الحاجات الإنسانية، ليصبح التراث متجددا، يتوافق مع واقع الحياة التى يعيشها الإنسان في عصره، وهذه صفحة جمعية أخرى يمتاز بها كل الموروث الشعبى ، ومنه عناصر الثقافة الشعبية.

ليست كل أشكال الحكى والقول الشعبى ، تخضع لتأثير النفس البشرية، وما تطرحة من اتجاهات سلبية على الثقافة الشعبية، فهناك

الحكايات الشعبية عامه وحكايات الخوارق خاصة التى تعبر عن كثير من القيم الإيجابية للثقافة الشعبية وتعلم منه ومازال الكثيرين ، فمن من البشر في كل أنحاء العالم لم يتعلموا من سندريلا، والصياغات المحلية لموضوعها الأساسى .كست الحسن في مصر . تعلموا القيم الأخلاقية ، وقيمة العمل، من منا لم يستمتع بحكايات الجدات وهى تحكى عن فرت الرومان والشاطر حسن وتعلموا منها نماذج سلوكية جيدة، فبجانب ما في هذه الحكايات من متعة عن الغرائب التى تتحدث عنها، "إلا أنها تعكس الكثير من عالم الإنسان الداخلى وتطوره خاصة التطور النفسى، والذى تؤثر فيه بشخصياتها وما تحمله من رموز ، تثرى الأعماق النفسية ويتولد عنها فيما بعد ذلك العالم من الأمنيات والمثل التى يعتقد بها الأنسان، مما شجع كثير من علماء النفس على الاستعانة بهذه الحكايات لتفسير الكثير من الاضطربات النفسية ، وأصبحت الصور المسيطرة بها كالقلاع والقصور والأبراج والزهور والبشر والجنيات رموزاً لتكوينات نفسية"(١)

والحكاية الشعبية تتأرجح ما بين النظرة الإيجابية والنظرة السلبية، وأسباب ظهور بعض القيم السلبية والتى تحاول الإساءة إلى الحكاية الشعبية ، نتيجة لضعف في بعض النفوس البشرية ، والتى تسعى لاستغلال قوتها ، ولفرض ثقافتها الفرعية على الآخرين واستغلالهم مبتدعين قيماً وأعرافاً ، تخصهم وحدهم ، وينسبونها قسراً إلى الثقافة الشعبية ، أو الثقافة العامة للمجتمع، التى حفظتها لنا أشكال الحكى والقول الشعبى، وما علينا

---

(١)(كمال الدين حسين: مدخل في قصص وحكايات الأطفال،٢٠٠٥ ص٢٣٦

إلا استقرائها والتوعية بها واحيائها للإفادة منها.

وحتى تتم الإستفادة من الجوانب الإجابية في الثقافة الشعبية، لابد من تسلك طريقين:

١ ـ الاختيار الواعى الموضوعى لأشكال الحكى بما تتضمنه من عناصر ثقافية نشعر أنها تساعد على تنشئة أطفالنا ، وتشبع احتياجاتهم الأخلاقية والحياتية والوجدانية، بما تقدمه من خبرات ونماذج وقيم ، ونحاول احياءها من خلال عدد من الأنشطة التربوية التى توجه الأطفال فيه صالحهم وصالح الوطن.

٢ ـ احترام الاختلاف بين الثقافات الفرعية، دون أى محاولة للتقليل من شأنها، او محاولة التحيز أو فرص ثقافة جماعة ما على آخرى، أو ازدراء ثقافة ما، فلا اختلاف سنة من سنين الحياة، والتطور ، وحسبنا أن الرمن كفيل بالإبقاء على ما يصلح، أما لا يصلح فهو زوال.(١)

أسباب احياء فن الحكى والحكايات:

١. جاء الأهتمام بالحكى والحكايات الشعبية جزءاً من تحول كبير في القيم الجمالية، الذى أعاد الحياه إلى الفنون البسيطة التلقائية والجماهيرية، وبعد فترة من المواجهة الفردية وسعه المعرفة وظهور عدد من الشكال الفنية المتطورة، استفاد عالم النخبة المعاصرة كثيراً من الدلالات الفنية الشعبية.

(١) كمال الدين حسين: الحكى الشعبى وتثقيفف الطفل، المؤتمر العلمى الثانى لثقافة الطفل، كلية رياض أطفال جامعة الأسكندرية ٢٠٠٠

٢. اصبح شكل الاتجاة إلى إحياء واستخدام الأساليب الفنية الشعبية، إتجاهاً مهماً لمواجهه تغريب الواقع نتيجة لظهور المجتمعات الصناعية، فممارسة رواية القصة يجعل الحياه الثقافية أكثر ديمقراطية، لأن العروض الجماهيرية لرواية القصة الشفاهية تستهدف كل المراحل العمرية، وكل أنواع وفئات المستمعين في المجتمع.

٣. فرضت إعادة الثقافة الشعبية نفسها على سباقات واتجاهات اجتماعية وايدلوجية كبرى، مثل زيادة الأهتمام والوعى بمشاكل البيئة، والقلق الناتج عن الخوف من فقدان القدرة للسيطرة على القوى التى جاءت بها التكنولوجيا المعاصرة المعقدة.

هناك هناك دافعان يقفان وراء الرغبه في إحياء هذا التقليد الشعبى أو تلك الظاهره الشعبيه ظاهره (الجده الحكاءه) أو ظاهره توظيف القص والحكى كوسيط ثقافي ، لتثقيف الناشئه ، الدافع الاول يرتبط باتجاه الدوله والمجتمع إلى التنميه الاجتماعيه، فقد كان (النهج المتبع في التنميه يركز أساساً على الانتاج وزياده رأس المال، وإلى رفع الناتج القومى الاجمالى بحماس شديد، دون النظر بنفس الأهميه للأهداف الثقافيه والإجتماعيه أو العمل على التنميه الاجتماعيه والثقافيه بشكل مواز.

وقد أدى السعى المحموم إلى تكديس الثروة، دون إكتراث بالأهداف الاجتماعية، إلى التهالك على اللذات، وعلى العدمية الثقافية، ناهيك عن قابلية النظام الاجتماعى للزعزعه، وعلى ذلك يمكن القول أنه إذا لم ترتبط أهداف الأنتاج بأهداف ثقافية، وبأهداف النظام المعنى، فإنها تصبح

معرضة لخطر الدعوة إلى فلسفة "الكثرة الفارغة".[1]

ساعد هذا الاتجاه تلك النظرة العامة التى كانت سائدة تجاه التقاليد والثقافة بشكل عام خاصة في المجتمعات ذات التقاليد القديمة والشعبية. فقد كان أصحاب هذا الاتجاه يرون "أن الثقافة والتقاليد

تنطوى على عناصر من شأنها ان تستحث التغير يبدأن حججهم اتجهت في فجواها بشكل عام ضد التقاليد" ١٧. كما وصل التطرف في الاتجاه بالبعض إلى القول " بأن المجتمعات التقليدية لايمكن أن تقوم بتحديث نفسها ما لم تغير مؤسساتها ومعتقداتها وقيمها التقليدية لتفي باحتياجات التنمية" [2]

أما الدافع الثانى فقد جاء مع تطوير وسائل التكنولوجيا الاتصال في العالم الحديث ، والتى ازدهرت في تطورها مع نهايه القرن العشرين حتى استطاعت الثقافه الغربيه بخبراتها ونماذجها (من اختراق معظم مجتمعات المعموره ، بدون ضبط ، ودون قدره من الدوله وأجهزتها على مراقبه ما يبث فيها أو يعرض.[3]

مع ثورة الاتصالات أصبحت شعوب العالم الثالث أو النامية أو الدول القومية مستهدفة ثقافياً في ظل ما يعرف بالعولمة التى حاولت وتحاول من

([1]) (س. ك ديوب: الأبعاد الثقافية للتنمية (مقال ـ المجلة الدولية للعلوم الإجتماعية، اليونسكو ـ نوفمبر ١٩٨٨ ص٦٥)

([2]) (س.ك.ديوب:١٩٨٨.ص٦٦٥).

([3]) (باقر سلمان النجار:العولمة والثقافة (مقال: مؤتمر العولمة وقضايا الهوية الثقافية المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة إبريل ١٩٩٨. ص٣٩).

خلال المؤسسات متعددة الجنسيات أن تسيطر على العالم اقتصادياً وثقافياً" لقد استهدفت العولمة" مجالات نشاط الدول القومية، ومنها مجالات الحياة الثقافية المادية منها والمعنوية، جراء ثورة الاتصالات التى أدت إلى إقتحام البنى الثقافية والحضارية لشعوب العالم، عن طريق الأنتاج السينمائى والتليفزيونى والفضائيات، التى جعلت مختلف المجتمعات سوقاً مفتوحة أمام المنتجات الثقافية، وأنماط التفكير والإذواق وأسلوب الحياة الغربية الأمريكية منها خاصة". ٢٠.(١)

لذا كان لابد من محاولة السعى لإيجاد سبيل جديد نحاول من خلاله تثقيف الطفل المصرى لتجاوز المحنه الثقافية التى يعيشها، خاصة وأن العقود السابقة التى مارست التنمية الاقتصادية قد اثبتت مدى الأهمية الحاسمة للثقافة، فقد تحول التركيز تدريجياً من الحرية السياسية إلى النمو الاقتصادى إلى المساواه الاجتماعية إلى الاستقلال الذاتى للثقافة".(٢)

ولقد اثبت تجارب التنمية في بلاد ذات تقاليد ثقافية أصلية كاليابان والصين أنه لايمكن "النظر إلى التقاليد بوصفها بقايا آثار من عهد قديم .. فهى تسهم في تزويد المجتمع بمعنى خاص للوجود، وتشكل الأسس اللازمة للتكافل الاجتماعى، وتوفر مبادئ توجيهية للعمل، ولا يمكن التفكير في

---

(١) (هانى حورانى: الثقافة الوطنية والتعددية في ظل العولمة،(مقال مؤتمر العولمةوقضايا الهوية الثقافية القاهرة ١٩٩٨ ص٣٩)

(٢) (س. ك ديوب: الأبعاد الثقافية للتنمية (مقال ـ المجلة الدولية للعلوم الإجتماعية، اليونسكو ـ نوفمبر ١٩٨٨ ص٦٧)

إزالة البنى دون الاستعاضة عنها بنظائر عملية ملائمة" ٢٥.[١]

الرواية والحكى

لايوجد شعب من الشعوب ولا جماعة من الجماعات إلا ولها تراثها القصصى، وأساليبها المتميزة في حكية، وتواتره عبر الأجيال كحكمة.. وعرف.. وقيمة.. وخبرة تحرص الجماعة الشعبية على توارثها شفاهة عبر أجيالها، باعتبارها القصة واحد من أوائل الدروس.. ومصادر المعارف المختلفة التى عرفها الإنسان.

فالحكى.. أو السرد.. أو رواية الأخبار.. جميعها مترادفات لظاهرة إنسانية يمتاز بها الإنسان عن سائر الكائنات، ظاهرة عرفها الإنسان ليرفه بها عن نفسه وليتسلى، كما عرفها عندما أراد أن يعرف.. وعندما أراد أن يفسر ظاهرة ما.. وعندما أراد أن يعبر عما يدور بعقلة من أفكار للأخرين.

عرفها الإنسان منذ عرف الكلمة وسيلة للتواصل.. فجميعها ما هى إلا إفادة كلامية شفاهية، ينقل من خلالها الإنسان خبرة حياتية صادفها، أو عرفها، فقرر أن يفيد بها جماعته التى يعايشها ويتواصل مع أفرادها، سواء كانوا لم يعرفوها من قبل، ولكن لعناصر التشويق والإثارة أو لأسلوب حكيها، وللدرس المتفق بها، يستافوا لسماعها مرة.. ومران.. وعندما يشير الإنسان ببصيرته فائدة الخبرة التى سمعها يحفظها، ويتوارثها يوتوارها عبر الأجيال.

---

(١) (س. ك ديوب: الأبعاد الثقافية للتنمية (مقال ـ المجلة الدولية للعلوم الإجتماعية، اليونسكو ـ نوفمبر ١٩٨٨ ص٦٥

فالحكى إذا ليس كلاماً بلا هدف.. "بل هو وسيلة للمعرفة والدرس والتثقيف. لذلك أطلق على الإنسان لامتلاكه هذه الظاهرة، بأنه "حيوان حكاء".. يجيد السرد والحكى.. يمارسه يشغف.. ويتوارثة ويورثه باعتبار أنه ميراث الحضارة.. والثقافات. وأحد اساليب تناقلها والحفاظ عليها، فالحكى كان للإنسان الأول "أداة المعرفة الوحيدة التى عرفها، ومن خلاله صاغ فكره الدينى، ةالثقافي، والعلمى، واستطاع من خلاله أن يعبر عن الخبرات الحياتية، ويشكل من خلالها الوعى الإنسانى وإدراك الحياة، وذلك ما عرف بالحكاية أو القصة.. التى ابتدعها الإنسان بالضرورة، باعتبار أن الحكى نفسه فطرى لدى الإنسان نزوعاً إنسانياً يستحيل تجاهله في كل العصور التاريخية، والمراحل العمرية للإنسان، فضلاً عن رغبة دفينة في امتلاك العالم عن طريق الحكى وإعادة تشكيلة كما يحلم به".(محمد رجب النجار،١٩٩٥.ص٤)[1]

أهمية الحكى الشعبى:

كانت الحكاية بأشكالها المختلفة وسيلة الإنسان للمعرفة. والتهذيب والتثقيف، تواترها شفاهة عبر الأجيال وكان ذلك يتم عن طريق رواة ثقاه من كبار السن، أصحاب الحكمة والمنزلة بين الجماعة أو الأسرة، ومع التطور وتوزيع الأدوار الاجتماعية اختص نفر من الجماعة من بين أفرادها الجماعة برواية أنواع بعينها من هذه الحكايات كتخصص الكهن ورجال الدين في حكى الحكايات العقائدية، والجدات وكبار السن من النساء في

(١) (كمال الدين حسين: الجدة الحكاءة وتثقيف الطفل، مؤتمر ثقافة الطفل العربى ـ رؤية مستقبلية للقرن الحادى والعشرين مارس ٢٠٠)

حكى الكايات المنزلية والأخلاقية، كما ظهر بين أفراد الجماعة محدثون يمتهنون رواية القصص وحكيها للأفراد والجماعات ولأهمية هذه الممارسة للجماعة الشعبية، حاولت الجماعة الشعبية إكسابها ما تستحقة من الإجلال. فخصصت المناسبات المختلفة للحكى، وابدعت الطقوس المصاحبة لبعض أنواع الحكى وخصصت أماكن للحكى، واصبح حكى الحكايات وروايتها واحداً من العادات والتقاليد الشعبية التى تمارسها كافة الجماعات الشعبية، وتتميز جماعة عن جماعة بالمناسبات والأماكن والطقوس التى فعل الحكى أو الرواية.

واليوم بعد أن اختفت جلسات السامر المسائية من المنازل ، والمقاهى، واماكن التجمعات البشرية ، الامر الذى ادى الى اختفاء ظاهرة الحكى، وماتبعها من تدهور الدرس الثقافي الذى حرمت منه الاجيال الحديثة،باعتبار أن غياب الحكى والحكاية والتى وظفتها الشعوب.. للحفاظ على تراثها الثقافي وتحقيق الانتماء والتماسك داخل الجماعة حيث كان الراوى الحكاء هو المعلم الأول.. والحكاية هى أول الدروس التى يتعلم منها الصغار والكبار ثقافتهم ، فكيف يمكن اليوم اكساب الطفل الصرى ثقافته في غياب هذا المعلم ؟ وهل يمكن احياء ظاهرى الحكى عن طريق كبار السن للاطفال ن في محاولة لتثقيفهم ، حول احياء ظاهرة الجدة الحكاءة ، او حكى كبار السن للصغار.(١)

---

(١) (كمال الدين حسين: الجدة الحكاءة وتثقيف الطفل، مؤتمر ثقافة الطفل العربى. رؤية مستقبلية للقرن الحادى والعشرين مارس ٢٠٠)

الفهرس

تمهيد ٥

كيف نخاطب أطفالنا؟ ٩

الحكى وتربية الطفل ١٥

الأسرة والطفل بين الأمس واليوم ٢٣

الحدوتة ٣٣

الحكاية الشعبية ٥٣

الحكى الشعبى وتثقيف الطفل ٩٦